تصدير

هذا العدد هو العدد الخامس والسبعون من مجلة « قصص » . والرقم « الخامس والسبعون » يمثل فى تقاليد بعض الشعوب معنى خاصا اتسع انتشاره حتى أصبح الى الصبغة العالمية اقرب فتقام بمناسبة بلوغه معالم الزينة والافراح لانطباق ذلك العدد على سنوات من عمر انسان أو حياة مؤسسة .

ولكن هذا الرقم فى عمر مجلة « قصص » لا يمثل سوى حلقة عاديةمن حياة هذه المجلة المبنية على النضال من أجل الأعم والأوسع ، ومن أجل الآخرين فى الأساس . ومن ذلك شأنه فان تزيده « المحطات » قوة دفع ، ولا باعث تحرك ، لأنه لو كان كذلك فان خوف الانقطاع يبقى يهدد بغياب المحطة ، ومن ثمة غياب الدافع المتأصل أو أنه يصاب بالوهن والشلل على الآقل . ومن ذلك شأنه ـ ايضا ـ فعليه أن يتقبل كل ما يحول أو يشجع ، وكل ما يعرقل أو يدفع، بروح الأملوعزيمة العمل لا فرق بين قطبيه ولا بين سرائه وضرائه على حد سواء .

وذلك هو سر بقاء هذه المجلة واستمرارها حتى الآن نتيجة طبيعية لتربة مخصاب يحضنها نادى القصة منذ ما يزيد على العشرين سنة . وقد تعاقبت أجيال هذا النادى دون أن تتقاطع ، وتمازجت الأهواء دون أن ينالها الذوبان او يهرئها التشتت ، لأن الخط البيانى ومنهجية المسار كانا على نسق ، وأن الروح النابضة بالصدق فى النادى وأعضائه تمرست على المثابرة حتى تأصلت كالنحيزة ، وتجذرت كالباسقة العاتية أصلها ثابت وفرعها فى السماء.

ومهما يكن فلن يدفع بنا التفاؤل والثقة بالنفس الى هلهلة الغرور وصلف الاعجاب ، أو الى عدم التوقع لما هو فوق الطاقة أو مما يسمونه « القوة القاهرة » . وكيف يمكن البعد عن ذلك ومقاييس الخسارة والربح ، وصراع السعر والطاقة ، ومراعاة المستهلك والحاجة ، وتخلخل الركيزة والسند . كلها متجمعة قد تجعل التفاؤل المتواصل ، والثقة المتحفزة لافتة حذر وملامح توقع . لكن ذلك لا يصل الى تمثل السد الذى لا يقاوم ، أو التيار الذى لايرد. وعلى هدي من ذلك واتعاظ من هذا نتقدم مواصلين المسيرة ، وعلى الله الاتكال .

« قصص »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الطاهر قيقة

من غياهب الجب

تنظر الي شزرا كأنى قتلت أباك · لا أبالك · نعم · أحببتها ، أحببتها حبا أخذ منى القلب والحشا . وهمت بها وهامت بي · وتبخر حبها يوما وتبدد ، وتنكرت لى عندما عصفت بى الايام وصدت . عشرون سنة مضت علي ، وأنا لا أعلم ماذا حدث ولماذا انفصم الحبل · أدور على نفسى دوران من ضربوه على أم رأسه ·

قل لى بالله عليك : هل كانت صادقة فى حبها لى أم هل كانت مثل الايام سرابا وكذبا وبهتانا ؟

تعجب من هذا السؤال يلقى عليك بعد عشرين سنة !؟

أراك ترفع حاجبيك تسألنى ·

كنت تحبها أنت أيضا وتخطب ودها وتتقرب اليها ·

لا · لا ترفع يدك محتجا ··· ان ما أقوله حق ··· ما بحت لها يوما بحبك· لو حاولت أمرا كهذا لسحقتك سحقا ·

لا تغضب . كنت ولا تزال تهواها وتأنس اليها . قل لى : هل أحبتنى حقا لما أحبتنى أم هل كانت تسايرنى والنفس شاردة ؟

لا تضجر ولا تهم بالقيام ··· أرى وجهك يربد كأنك تعطف على حالى ·

★ ★ ★

عضنى الدهر فلم أفلح ولم أتعلم حرفة واضحة أرتــزق منها · وطــردنى الاسكافي الذى كنت أعمل عنده · فلجأت الى هذا الدكان أرقع فيه الاحذية فى النهار وأسكن فيه بالليل ·

ما أثقل هذا الحذاء على ركبتى ! جلد صلد كالحديد تعاقبت عليه السنون بحلوها ومرها . لا تكاد تثقبه « الاشفى » . اتسعت خروقه وعلته طبقة هائلة من الطين اليابس . صاحبه فلاح شيخ هو صديق لى يزورنى ويتعهدنى ببيضات وقليل من العسل . بقيت أحب العسل والبيض ... نصحته بالتخلص من هذا الحذاء الذى ضارع الزمان فصرعه . فقال : لازمنى طول حياتى وصدقت صحبته . فلماذا ألقى به فى المزبلة . لن أفارقه الا بالموت . فاذا مت فلا حرج أن يطرحه أبنائى فى فناء البيت تدوسه ارجل البقر . أقاسى هذا الحذاء اكراما لذلك الرجل الفاضل :

★ ★ ★

تتثاءب وتهم بالانصراف . لا . مكانك . أصغ الى حديثى . أنا مشتاق الى التحدث وقد وقعت فى الفخ فاصبر ولا تتململ .

أبقى أياما وأياما صامتا لان الناس يحيدون عن دكانى عندما يمرون بى ولا يسلم علي أحد . فأفطن أحيانا بأنى أحدث نفسى بصوت عال فأخجل وأتماسك . ان الله سخرك فساقك الي . فتحمل ثرثرتى وهذيانى فما هى الا ساعة تقضيها معى ثم تنتفض وتنصرف .

★ ★ ★

كنت فضا غليظا أنهش الحياة نهشا وأبلغ مرادى غصبا . فربما قسوت عليها وعنفت وخلبت لبها كما يصنع الثعبان مع العصفور . وعندما كسرت الايام شوكتى وتبدد حالى عادت الى رشدها ومحت صورتى كما يمحى الحلم المزعج .

ما بى أراك ساكتا ؟ قسمات وجهك ماء راكد . كأنك عزمت أن لا تجيبنى فتذيع سرا اؤتمنت عليه .

★ ★ ★

كان بوسعى أن أغادر هذه المدينة التى أمست لى سجنا أطبقت عل جدرانه . كنت أستطيع أن أجوب فى الآفاق لانساها ، أو أؤجر سواعدى لاصحاب الضيعات ، فأحرث أرضهم وأحصد زرعهم وأحمل أثقالهم وأقيـ

معهم ما طاب لى المقام ثم أواصل تجوالى لاقطع فضاء بكرا وأشاهد عندما أحط رحلى وجوها جديدة ، أو أن أمد يدى للسؤال متنقلا من قرية الى قرية أطرق الابواب جميعها علي أسلو عنها فأستل من أحشائى الدويبة التى أنشبت في أظفارها ٠

ما أقدمت على ذلك لانى أبغض طي الارض وشم النسيم ، ولا أميل الى حياة البادية ٠ أنا مثلك ٠ أنا من أهل الحضر لا يطيب لى العيش الا فى المدينة ٠ أحب التجول فى دروبها وسككها ولا آنس الا بأبناء الحي الذين شاركتهم ألعابهم وعبثهم ٠ أفقى محدود وشمسى يضيع نورها ويمتزج بالظلال فى منعرجات الازقة وغياهب الدهاليز ٠ أنا جرذ الزقاق ٠

★ ★ ★

ماذا أنتظر هنا ؟ هل الموت أترقب ؟ الموت يا صاحبى فقد معناه فى نظرى٠ انه لا يخيفنى ولا يغرينى ٠ شراب سأسقاه يوما على حين غرة ٠ فلا أجد له طعما ولا نكهة ٠

★ ★ ★

لا تنزعج يا أخى ! لست ساخطا ولا متشائما ٠ أنت صديق الصبا ٠ لازمتنى وشاهدت هزيمتى وافلاسى ٠ وما فتئت تزورنى ولا تؤنبنى ٠ أنت أجدر الناس لادراك بلائى ومحنتى ٠

★ ★ ★

أعود الى طرح سؤالى : هل كانت مخلصة لى ؟ هل أحبتنى حقا لما أحبتنى ؟ لا تهمنى الا تلك الفترة عينها ٠

لا تخش ان تصدمنى . انى أصبحت مثل هذا الحذاء لا يؤثر فى شىء ولا يرقع فتقى ، قل لى الحقيقة لو كانت علقما .

★ ★ ★

ترفع حاجبيك كأنك تتأمل أو تتردد ... قد تتساءل لماذا أصر على العودة الى زمن مضى ولماذا أتوقف عند تلك الفترة بالذات أريد احياءها أو تجليتها، والحال أن الزمان تغير مستمر تنفي فيه كل لحظة سابقتها . مشكلتى يا رفيقى مع الزمان . صراعى مع الزمان .

أريد أن أعرف هل كتب لى فى يوم من أيام حياتى أن أوقف هذا الزمان المتحول فابنى صرحا يهزأ به. أريد أن أعلم هل عشت معها حقا ساعات وضاءة صافية عندما كنت أرى الكون بعينيها فأشعر بأنى أكملت ذاتى وبلغت أوج قوتى وقدراتى أم هل كانت تلك الساعات منذ لحظة اشراقها طعمة للزمان ينخرها فى باطنها فيزيفها وأنا فى غفلة · قل لى : هل استطعت واياها أن نوقف الزمان فنعدمه ·

★ ★ ★

أخاطبك يا صديقى من غياهب الجب · يجرفنى سيل الزمان فى بطء وقد لطخنى بأوحاله فأصبحت لا أستكين الا الى الظلمة · يغير كل شىء من حولى ولا يغيرنى · أنا المهزوم الذى لم يرض بالهزيمة لانه يظن أنه غزا الكون فى يوم من الايام ، كلمة واحدة منك تنقذنى . ستكـون زادي لقطع ما بقي من الطـريق .

★ ★ ★

هل تذكر يوم بحت لك بحبى لها · كان الوقت عشاء · وكنا نمشى فى شوارع المدينة تدفعنا أمواج البشر يمينا وشمالا · وكنا مطرقين · وبغتة قبضت على كتفيك وأدنيتك منى وحملقت فى عينيك وقلت لك صائحا : أحبها· أحس بنار تتأجج هنا فى احشائى ··· وأخذت أتحدث وأسرع الخطو حينا واقف حينا آخر ملوحا بيدى تـارة وقابضا على ذراعك وكتفيك تـارة أخرى وكنت أقول : اليوم عرفت منزلتى وأكملت انسانيتى · أنا قادر على تحويل الجبال من مكانها بومضة من عينيها · وكنت صامتا تبتسم · ثم قلت : هى تحب وأنا أصفع ! هيا بنا · وسقتنى جاهدا الى البيت وأنا لا أنقطع عن الحديث

وعندما وصلت الى بيتك قلت لك : أنا جائع فقلت : كفى من التحليق فى الفضاء فلبدنك عليك حق · خذ · ومددت لى خبزا وقطعة من الجبن المالح · فأكلت صامتا وشربت من الحنفية · وكنت تنظر الي وعلى شفتيك ابتسامة حزينة · وعندما اضطجعت وضعت يدك على جبينى قائلا : نم هنيئا يا أخى · فأنا ساهر ·

أرى على شفتيك الآن نفس الابتسامة الحزينة · كنت تحبها أكثر منى ولكنك أمسكت وعففت · لا تحرك رأسك هكذا مستنكرا · أنا واثق مما أقول · كنت ولا تزال كالفراشة يبهرها نور المصباح فلم تفتأ تتهافت عليه ولم تجرؤ على الاحتراق فيه والذوبان اكبارا للنور واجلالا : أما أنا ···

★ ★ ★

انظر الى هذا الدكان · انشقت جدرانه وعششت العناكب فى زواياه وتعددت الثقوب فى سقفه · فأصبح كالمصفاة لا يقى من الحر ولا البرد ولا المطر ·

ترى هذه الكلاب وهذه الجراء التى تحيط بى ·

اتخذت كلبا وكلبة لمصاحبتى فى وحدتى وانعزالى · فولدا هنا دون أن يبرحا الدكان هذه المجموعة من الجراء · فأصبحت لى أسرة تكنفنى وترعانى ·

★ ★ ★

لا تطأطىء رأسك كأنك ترأف على حالى · أنا أمقت العطف والرأفة · هذا تعويض لما فاتنى ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

★ ★ ★

ترانى وسخا نتنا تحيط بى الكلاب تبيت معى فى نفس الفراش وتأكل معى فى نفس الاناء · أعايشها فى هذا الغار المظلم فتؤنسنى فى وحشتى وتدفئنى عندما يشتد البرد ·

لما عكست الايام وتنكر لى كل قريب وصديق اتخذت لى هذه الكلاب وربيتها فأخلصت · فلما كبرت واشتدت عضلاتها طابت لى أنفاسها والتذذت بلحسها وآنسنى نباحها وفضلت الكلاب على البشر ·

★ ★ ★

مالك ترفع كتفيك وتهم بالقيام ؟ مكانك · لا أبالك ·

متى أخلص البشر للبشر ؟ تعاقبت عليهم الانبياء والاولياء والمصلحون فلم يصلحوا حالهم · وأخلصت الكلاب للبشر فحرستهم ورعت غنمهم وصاحبتهم فى الرحيل وساورت معهم وحوش البرارى وجرت عـرباتهم ونجتهـم مـن الهلاك ·

★ ★ ★

تحرك كتفيك وأرى فى عينيك بريقا :·· تهزأ بى ؟

★ ★ ★

أنا محتاج الى من يخلص لى ولو كان كلبا · لو رأيت كيف ترمينى فى كل لحظة بنظرات رقيقة دافئة ! لو رأيت كيف تدس ليلا رؤوسها تحت الغطاء تدفئنى ! لو رأيت جراءها ترتمى فى حضنى ! لو رأيتنى أخاطبها كل يوم وأحدثها فى كل موضوع فتمد أعناقها وتنصت الي دون كلل أو ضجر ! أنا الى الوفاء فقير ·

★ ★ ★

ترفع حاجبيك · أرى بسمة حزينة ترفرف على شفتيك فلا تستقر · لكأنك تعتقد أن الاخلاص ابن الساعة يتلاشى بمضيها وأن ذلك هو قانون الوجـود لا يشذ عنه كائن حي ولو كان كلبا · أليس كذلك ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

★ ★ ★

ولكن ماذا أصنع وأنا أبحث عن ضالة ؟ أقنع بظلها عندما عز علي منالها · أقنع بما هو متاح وفى متناول اليد ولو كانت الندامة هى العقبى ·

عضة كلب جحود أهون علي من زيفها لو ثبت عندى زيفها ·

قل لى بربك : هل أخلصت لى أم هل كانت تراوغنى والنفس نـافـرة ؟ هل استطعنا فى حقبة من حياتينا أن نصرع الزمان ولو لحيـن ونشـذ عن القاعدة ؟ كلمة واحدة منك تخلصنى من الوحل الذى وقعت فيه وتخرجنى من الظلمة الى النور ·

★ ★ ★

أراك تهم بالكلام ولا تنطق · كأن بعيرا برك على لسانك · فهمت أن لا جواب عن سؤالى · سأمكث فى ظلمة هذا الغار حتى يلطف الله بى · اذهب على بركة الله · تصحبك السلامة يا أخى ·

الطـاهـر قـيـقـة

حسن نصر

المائدة

من بداية الصباح ، تكون مائدتهم منصوبة ، مرصوصة من الحافة الى الحافة بكل ما يقوله الفم واللسان : أباريق تطفح باللبن والقهوة الساخنة ، وصحاف المعجون والزبد ، والرقائق المجمرة مرصوفة فى الاطباق ، وشرائح اللحم المصلى ، والبيض المقلى فى الصحون . والاكواب تفيض بالوان الاعاصير ، والسلال مكومة بالتفاح والبرتقال والموز والاجاص وجوز الهند والاناناس ، وأجبان كثيرة وألوان ، وأكهة يفوح أريجها بعطر قوى نفاذ ، ومآكل أخرى لم أعرفها ولم تمر يوما إمام نظرى .

ينهضون من نومهم ، يجتمعون حول المائدة ، يأكلون ويشربون ويتحدثون ثم ينصرفون لبعض شؤونهم .

عند الزوال يعودون ، يجدون المائدة فى انتظارهم مزدحمة بمختلف ألوان الاطعمة .

يلتفون حولها من جديد ، يلتهمون أنواع الاسماك المقلية والمحشية والمشوية وفواكه البحر الاخرى ، وشرائح اللحم المحمرة والمفرومة والمسلوقة ، وأنواع الطيور البرية والبحرية ، والغلال الصيفية والشتوية ، ويترشفون الاكواب المملوءة حتى الحافة بما يشتهون من الخمور المعتقة من كل القارات ومن المناطق الخرافية .

ينهضون عن المائدة بعد ذلك ، يأخذون سياراتهم الى حيث لا يعلم أحدهم الى أين يتجه الآخر ، فاذا أقبل المساء عادوا من جديد . يجدون الانوار تخفق فى كل مكان ، والثريات تتلألأ ، والشموع تشتعل ، ومائدة العشاء منصوبة كالعادة .

يقبل أفراد العائلة الثرية الواحد بعد الآخر : الاب وزوجته وأولاده وبناته ونساء أولاده ورجال بناته ، يأكلون ويشربون ويعربدون ، ويسأمون أيضا . ومع امتداد الوقت يزداد تعطشهم للشراب وتتفتح شهيتهم للطعام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فى احدى هذه المآدب أحس رئيس العائلة بتوعك فى بطنه ، فقام لقضاء بعض حاجته ٠

غاب فترة من الوقت وحين عاد بدت على ملامح وجهه علامات الحيرة والانشغال ، وعلى غير عادته جلس مطرقا مفكرا ٠

انتبهت اليه زوجته ، اتكأت تسأله ، لكنه ظل واجما لا يجيبها ، ثم تفطن بقية أفراد العائلة . فانشغلوا بأمره وساورهم القلق عليه .

أمام هذه الوضعية ، لم يبق له الا أن يكاشفهم بحقيقة الامر ، قال لهم متصنعا الضحك :

ـ منذ وقت قليل أحسست بتوعك فى بطنى ، دخلت الى المستراح ٠ اذا الاطعمة تخرج منى صحيحة ناضجة كأن مصنعا ببطنى يعيد تحويلها الى مآكل جاهزة ٠

حين سمع أفراد العائلة ذلك ، نظروا فى عيون بعضهم بعضا وانفجروا بالضحك حتى انبثقت الدموع من عيونهم ، وأجابوه :

ـ لا تدع القلق يسيطر عليك يا أبانا ، نحن منذ مدة طويلة نعيش هذه الحالة ٠

وكان يجلس معهم ، حول المائدة ، فى تلك الليلة صاحب بنك ، له ضحكة زرقاء ماكرة ، شيب رأسه مصفر ، يمد أنفه المعقوف أينما حل، يلتقط به رائحة العفونة ، ويغمس يديه المدنستين فى كل العمليات المشبوهة فى المدنة وخارجها ٠ تربطه بأفراد العائلة علاقات تجارية ومعاملات مالية وبنكية، شغله أمر هذه الحادثة ، فاهتم بها اهتماما خاصا ، وأولاها عنايته ، فتطوع بتقديم خدماته للعائلة ٠

أخذ عينات من هذا البراز ، أجرى عليه فحوصه وبحوثه ، ثم اتفق مع هذه العائلة أن يشيد ـ كنيفا ـ لتجفيف وتعليب هذه البضاعة ، ويتم تصديرها وترويجها فى البلاد الفقيرة ٠

أبدت العائلة الثرية ابتهاجها بهذه الفكرة التى لم يسبق لها مثيل ، حتى انها اطلقت على صاحب الضحكة الزرقاء ٠ اكبر لقب هو : «مروج المراحيض»٠

حسن نصر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ضبـاب الضفـة الأخـرى

ما كنت أدرى وأنا افتح هذا الكتاب أنه سيسافر بى الى أبعد من البعيد . فلقد كان الجو خارج البيت غضوبا . وهذا السحـاب ببـول على الارض التى تمسح وجهها مستبشرة . ولكننا نتعطل أحيانا بين هذا الغضب والاستبشار فلا نقدر على غير الاحتماء . تعمدت الاسترخاء وتحققت من موقعى على الاريكة ووضعت يدى فى يد بطل الرواية اذ هو شاب قوى الشخصية يحلم ببناء عالم مغاير تماما لهذا الذى نرتع فيه . ولكنه يلاقى جحودا واستنكارا فقد انبنت افكاره هذه على «الانكار» فقسم الازمنة ثم وضع كل اهـل زمـن فى اطـارهم وعزلهم عن البقية ممن يليهم من بعدهم . لست فى حاجة الى المضى فألخص لك الكتاب . ولكننى أضيف أنه ـ أى صاحب النظرية ـ قسم الطبائع فحشر البشر والحيوانات والحشرات فى مجمع واحد ثم صنف كلا حسب طبيعته . فهناك أناس حشرهم مع النمل حيث دلل على أنهم اتفقوا مع هذه الحشرة فى كل الطباع والخصال ، ومنهم مـن صنفهم مع الحمـر ـ والعقـارب . فحتى البراغيث وجد لها فى عالمه بشرا مشابها .

عالم عجيب صنعه هذا البطل لا يخلو من متعة ولكنه وهم . ومع الاوهام يسرح فكر الانسان . وسمعتنى أردد : « باطل الاباطيل الكل باطل ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس طور يحيا وآخر يذهب والارض قائمة الى الابد» أغمضت عينى اليسرى وقد اقتحمها ما يتصاعد مـن دخـان السيجارة . وامتدت يدى الى المطفأة أرفسها بهدوء وبعينى اليمنى كنت أتابع آخر السطر الذى به «وكان هذا البطل» ...

كانت الكلمات مشنوقة تتأرجح . ثم اختفت ليبرز مكانها شبح لا أقدر أن أقول : انه رهيب . ولكنه مع ذلك غريب . فما هو بانسان . وليس بحيوان انه مرتبة بين هذا وذاك . قال الشبح وقد واجهنى حين كاد يلمسنى .

افتح فاك ٠

قلت :

ما أنا بجائع ٠

فرد ضاحكا :

ـ وهل تفتح الافواه لغير الاكل ٠ فانت جائع اذن ٠ ولكنك تكتم ذلك عن نفسك ٠

انك وأمثالك تحيون الاسقاطات . قلت لك افتح فاك .

وفعلت ٠ فأدخل يده هناك وأخرجها وما ترك فى فمى ولو ضرسا ٠

قلت :

هذه جناية ٠

قال :

ما قيمة طاقم أسنان فى سبيل المعرفة ٠ فهل تألمت من العملية ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قلت :

كلا ٠ فما كنت استعمل طاقما اصطناعيا حتى تنزعه بهذه السهولة :

قال ضاحكا وكأنه فعل معى جميلا :

ذلك لعلم ان كنت من أهله ٠

قلت :

ـ لقد ظننت ذلك قبل الآن ٠

قال :

ـ اتبعنى اذن ٠

كنت أسير خلفه ، والشمس أشرفت على الغروب . وظل الاشياء يطول ٠٠ الاشجار والدواب كبرت أشكالها على الارض ، وتجاوزت أحجامها

مراث ،بينما تقزم ظلي أنا فكأنما عدت الىوقت الزوال حيث تتقلص الطلال. مررت بكل اللحظات الصافعة وأنا أسير خلفه فكأننى مقيد الى رجلة بسلسلة. أود النكوص فلا اقدر على غير الاندفاع .

أحاول الفكاك فانجذب . وكان يترجم كل نميمة تهمس بها أفكارى . ويعقب عليها ضاحكا :

ـ هل استفدت فى يوم ما من سوء الظن ؟ وانك لابله . وجبان أيضا . قدرت يوما أن تصارح نفسك فانى أعفيك من احدى الصفتين .

وأخذ يصغرنى حتى لم يبق فى نفسى خصلة اعتد بها . ومع ذلك فقد جمعت ما لم تصله يده من قواى ، وقلت اخيرا :

ـ لعلك استسهلت قيادتى . لقد أسكتنى حين أردت الدفاع عن نفسى . فأنت تحاور نفسك حين تسأل فتجيب دعنى أقول كلمة مخطئة على الاقل أبرر بها وجودى الى جانبك وأنت تسافر بى الى حيث لا أعلم .

قال :

لقد تركتك تتحدث الى نفسك بما فيه الكفاية .

قلت :

اذا كتب علينا أن نعبر الطريق معا فليكن الحديث بقدر المسافة .

ها انك تعلمت أن تسافر على الكلمات . لقد كان ظنى صائبا حين انتقيتك.

قالها وانطلق وأنا من خلفه أشاهد ظلى وقد تقاسمته الاشجار . فاستطال هذه المرة . ولكننى شغلت بالبحث عن ظله هو ، وقد نسيت أن ليس للاشباح ظل عدت الى خرافات أمى والجدة أبحث عن هذا الشبح فلعلنى تعرفت عليه هناك . ولكن لا فأشباح الخرافات لا تخالط غير بنات الملوك وكبار التجار . فمن أنا حتى أنال ذلك الشرف . فهل أصبحت بنتا وأن أبى لسلطان وعهدى أننى كادح ينحدر من سلالة الكادحين . وكدت أسأل مرافقى : ما الذى أغراك بى اكسدت سوق بنات السلاطين ؟ أم هو الملل من معاشرة الترف . بل لعلكم استسهلتم المستضعفين . ان تكونوا فعلتم هذا فأنتم من أراذل الاشباح تجهزون على قتيل . لكن الشبح استل أفكاري فقال هامسا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ أنا أدفع بك الى الافراح لتتعرف عليها مرة فى حياتك وأنت تنجذب نحو الاحزان · ان فى افكارك لنكسة · تخل عنها لبعض الوقت · انك تفكر فى خط أفقى · والحياة تسير فى خط عمودى · أمنعك من استعمال عقلك · فالافراح لا تستأنس العقلاء · انها مثل الطيور الجارحة تفزعها السباع وهى حية ولكنها تنتهك جثتها جيفة ·

وكان حديثه هذا يأتينى من خلال أدغال كنت أصارع فروع الاشجار وأغصانها كى أيسر طريقى الذى انتهى الى باب نفق مظلم · قال الشيخ :

ـ لم يبق لك الا أن تعبر النفق لتجدد نفسك فى قرية الافراح·

قلت :

ـ وكيف أتثبت طريقى وما عبرت قبل الآن نفقا مظلما ·

لا يهم · قال الشبح : سوف تتعرف على المتعة · الا اذا كنت جبانا ·

قلت :

ما أنا كذلك ·

قال :

ـ اذن طأطىء رأسك وسافر ·

قلت :

ـ ولكن ذلك لا يكفى فأنا يجب أن أنحنى ·

اوف قال الشبح : أنت تناقش الغايات · أما كنت ـ قبل الآن ـ صاحب عقل تتبجح باستعماله . فاستنجد به اذن وقلت أخيرا : هل تتقدمنى ؟

ـ قال :

ـ لا ان الاشباح تمرق وقد تجدنى فى استقبالك ··· وانى لاولج رأسى عقل تتبجج باستعماله . فاستنجد به اذن وقلت أخيرا : هل تتقدمنى ؟

واذا الشبح يدفعنى فلم أجد بدا من متابعة السير · كان الظلام دامسا رهيبا فلم أتبين طريقى فالنظر لا يفيد اذن فلأغمض عينى حتى أنجو من مفاجآت قد تخدع بصرى · كنت أسير تسبقنى يداى أتلمس الطريق · وكان صوت مرافقى الشبح يأتينى من كل مكان · أن واصل أيها الرجل الشجاع

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيبعث فى نفسى حرارة تستحثنى فأواصل بعزم قهر بعض النتوؤات · وتضرع بعض الزواحف تطؤها قدماى واصطدامها ببعض الصخور . واحتكاك يدى ببعض اللزوجات التى لم أعرها اهتماما . وطالت المسيرة . وتملكنى ملل حسن الي النكوص · ولكنى لم أجد القدرة على ذلك فما ظننت الا أنى مدفوع ولما فتحت عينى وجدت أنى قد تجاوزت النفق بامتار وأعشى النور بصرى · وتبدل نقيق الضفادع فأصبح أهازيج تبعثها الحناجر فاذا هى أجمل الاغانى .

وعلى مشارف قرية هناك استوقفنى الشبح قائلا :

ـ هذا موسم الفرح ففى كل بيت عرس · انطلق أنى شئت شاهد ولا تتعرف · اسأل ولا تجب اذا ما سئلت · انى أتيت بك لكى تتعرف · لا أن تعرف · امسح الفضول من لسانك واستبقه حيث يفيدك · وهممت بسؤاله فما أمهلنى قال : حتى لو أخلفتك الوعد · فقد يجمعنى بك زمان ومكان فما أنت ببعيد · لا تخشى أن تضل طريق العودة فقد أمنته لك ·

وقلت له قبل أن يحتجب :

ـ هيه · ولكن لا تنس أن ترد لى ما أخذته أو ما ترى أنك تركتنى أدرك الفم وأعجز حتى عن صوغ الكلمات · ألعلك تريد أن تحتفظ بها للذكرى ·

وقال ضاحكا

ـ أنت تزخر بالسخرية · وهل فيك ما يصلح للابقاء عليه كذكرى · انك لن تحتاج اليها · أوما ترى أنها تآكلت وعلاها صدأ لم يتعبك المضغ فى الهواء وبث الكلمات المعتوهة · سوف يعوضها جيل يجيد الطحن ويهرس الغلال والثمار التى تنجبها أشجار المستقبل حتى لو لم يتم نضجها · أفما شعرت انك تضع رجلك فى المستقبل وأنا لك فى عالم يستهلك كل فضولك .

دخلت كل البيوت وشاهدت كل عرس . فما حسبت الا أن كل الرجال عرسان وكل النساء عرائس . فالكل يستحم فى الفرح شعرت أننى خلقت لتوى فقد استلت النشوة كل خيط من ماضى · تعرفت على المعانى · لامستها بكل جوارحى ، فالنسوة كلهن جميلات وشبه عاريات يتعثرن فى شعورهن يقدمن كل شىء · كل شىء مباح ، كل حب حاضر · الرجال يعانقونهن ·

يقبلونهن . يراقصونهن . الابواب مفتوحة . القلوب متفتحة . البشر على الوجوه. وفى اللسان . وفى العيون يسكن الحنان . يتدفق الحب . برك من لذة ونشوة وجمال والكل فيها يسبحون .

دخلت كل البيوت تقريبا وشاهدت كل الاعراس فاذا هى متشابهة امتلأت نفسى سرورا ولم يبق فيها فضاء ضيق لمزيد . وأخذنى الملل فانفرد بى وأخرجنى فقد وضع فى طريق عقلى .

تساؤلات ماكرة . وقفت أمامها مبهوتا . ومادريت كيف تصرفت ولكننى وجدت نفسى ألج أحد البيوت وكان عرسا آخر ومن نوع ثان . فالنساء هنا كلهن راقصات وكل الرجال يوقعون على الدفوف . سألت ، وأنا اجلس الى شيخ ليس بيده دف ولا طبل :

ـ أما فى هؤلاء من يخترق هذا الدوى المزعج بآلة طرب ؟

قال الشيخ وهو يتابع بعكازته الايقاع :

ـ هل انت غريب ! ولماذا أتيت ؟ وكيف تجرأت ؟

وهمس صوت الشبح يلقننى قل له :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ اننى أتيت من اللاوعى . لقد تأخر بى القطار . وما وجدت أحدا فى انتظارى فالليلة موسم الافراح .

وقال الشيخ : حسنا . أو ما سمعت كلمة عن أزمة الاوتار لو وجد فى قريتنا وتر واحد لاقمنا فى الساحة عرسا جماعيا .

وكان همس الشيخ يلح : اسال فلن تجد غبيا يجيبك بمثل صراحة محدثك . والكل هنا يكتمون .

قلت : عماذا اسأل ؟ وأنت تمسك بأفكارى من مخارج الكلمات . خل بينى وبين نفسى . واحتفظ بتدخلك لنفسك .

ولان «الشيخ» استمع لما صدر عنى فقد سأل :

ـ مالك تهذى أأصبت بالحمى . أكتم أمرك ، فقد تسبب الفوضى وتنغص الافراح . فما فى قريتنا مرض وليس بها من مريض .

قلت : ما أنا كذلك وليس فى من سقم ، ولكنى ما تعودت على مخالطة الافراح مباشرة فمعذرة ان كنت تسببت ٠

وهمس الشيخ : اسأل فقط قلت لك ٠ وها انك تجيب ٠

سألت : رأيت الاعراض وما عرفت عروسا فهل الكل هنا يتقاسمون الفرحة بالسواء ٠ أم هى عادة عندكم الكتمان ٠

وهمس صوت الشيخ : فضحت نفسك ، وأعلنت غربتك اسأله عن نفسه وسيجيبك عن الآخرين ٠

قلت اسأل الشيخ : لقد سبق أن قلت لك اننى قادم من اللاوعى فهل حدثتنى فتعيد الى بعض ما أعيه ٠

قال الشيخ : حظك الحسن اوقعك فى رحاب فضولى مثلى فانا متهم بين قومى بالثرثرة ٠ لذلك ترانى معزولا ٠ انظر ٠٠ أرايت ذلك الشاب الذى تنشر عليه الزهور البيضاء ٠

قلت : الكل ينثرون الزهور . ولكنى أراه شيخا ذلك الذى تدعوه شابا . صبرا ٠ قال الشيخ : قلت الزهور البيضاء ، تثبت . قلت : نعم ، لقد رأيته الآن ٠ ماله ٠

قال : ذاك هو العروس ٠ والنسوة كلهن عرائس فهو يختار ٠

عجبا ٠ قلت ٠ هذا الشيخ ٠

ـ بل قل ذلك الشاب : قال محدثى .

ـ قلت : الشاب ! فاين الشيخ اذن ؟ وهذا البهو يعج بالشيوخ ٠

ـ بل قل هؤلاء الشبان ٠

حيرتنى كلماته وظننت انه يهزأ بى فقلت :

ـ أنا لم أفهم كل شىء ٠

يمكن أن يعوده التجديد غير هذا ٠ فالشيخ شيخ مهما عطل الزمن ٠

ـ عرفتك ضالا قال محدثى ٠ نحن هنا نكبر فى الارحام ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ قلت : معناه أنكم تبدؤون من الأعلى ثم تنحدرون .

ـ لم أفهم ـ قال الشيخ ـ فهل رأيت عكس ذلك ؟

قلت : نعم . فأنا ولدت صغيرا وها انى أتدرج نحو الشيخوخة .

ـ فقال : مسكين أنت خلقت بدون تجارب . فكيف تواجه الحياة ؟ لا بد أنك تألمت كثيرا . وها انك تحمل جروح الاحزان . اسألك متى تستمتع بحياتك ، ألا تكبرون فى الارحام ؟ كنسائنا .

قلت : اذا كنتم تبدؤون من الاعلى . ونزحف نحن من الاسفل فلا بد من نقطة للالتقاء على أوهى تقدير .

ـ كلا فنحن نتخطى المراحل . فبارادتنا نتصرف نأتى متى نشاء وننصرف عندما نمتلىء فرحا .

قلت : فهل لك أن تبادلنى . فماضيك هو مستقبلى . ومرحلتى الماضية : أنت مقبل عليها .

عبس الشيخ ونهرنى قائلا : كف عن المزاح المقيت . أنت تريد أن تجعل من باقى حياتى لعبة تثاؤب . تسلب منها كل مفاجئات الامل . أنا أشفق عليك أنت فلو رضيت انا وبادلتك فيكون ماضى هو مستقبلك لانتحرت . أنا لن أخسر فى الصفقة فمصيرى بين يدى وانى لقادر على تغييره فقد انسحب ثم أعود . أما انت فالموت ينتظرك وأنا فى منجى منه اننى فكرة . وهل تظن أن الافكار تموت .

قلت : وانى لا شفق عليك وانت تتدحرج والتجارب تتساقط منك فتصبح لا شىء وقد كنت شيئا .

قال الشيخ وقد عاوده الهدوء : سوف أكون بعدها فى كفالة أمى .

ـ فنساؤنا هن أيضا يبدأن من الاسفل ـ فاحتمى بتجاربها وعندما أصل الى منطقة اللاشىء انسحب دون ضجيج . لقد تصورت حياتك فأنت تبدأ من الصفر وتتدرج الى الاعلى تعيش راكضا وراء التجاربوقبل أن يكتمل علمك بها

تبدأ فى التناثر وتعود الى منطقة الصفر حيث بدأت ويكون ظلام حياتك أسوأ فمن شيخوختك منك طفلا ٠

قال : انما أردت أن استفيد ٠

قال : هذا الذي تطلبه غير مفيد ٠ أنت ربيب العادة فاذا تخلت عنك نفتك الى النهاية ٠ وليس للعادة فى حياتى من تدخل قم وراقص تلك الفتاة الجميلة واشرب مع القوم وشاركهم الافراح وعد الى منهوكا لعلي بعدها أقدر على ايصال شيء الى عقلك فانقذك من عقدة الانتكاس ٠

كان بهو الدار مفروشا بالطنافس المزركشة بزاهى الالوان عليها ارائك والنور يسطع من كل مكان لا مصدر له يحدد ورائحة العطور تشى بنفحات لك الزهور وهؤلاء الفتيات كانهن التماثيل العارية صنعت من مرمر مطواع وستائر شعورهن تحجب القدود الفاتنة تتسدل على النهود فتصل الى ما تحت الركب وتعود اخرى فى حركات موقعة فتعانق الارداف ٠ العيون الناعسة تسكب الحب والحنان والابتسامات تحتك فتدفع بك الى أعماق الانتشاء ورعشات النهود ترجعك الى مصدر الوجود فالحياة من هنا تبدأ وحتى نقر الدفوف أصبح فى أذنى لحنا عبقريا ٠ وقلت : أعاتب نفسى تتركين السباحة فى نبع الجمال هذا وتحبسيننى فى خرافات شيخ يوهمنى بأنه شاب ملأنى هذرا فشغلنى ٠ وحاولت النهوض والشيخ يستحثنى ولكنى عجزت عن الوقوف خاننى الكلام فأنا مصعوق وهذه الكهرباء تلسع جسدى فلا أقوى على غير الارتعاش ٠

قال الشيخ وقد شاهد ما أنا فيه : ها انك أسير عاداتك وتريدنى أن أعطيك ماضى لتكبله فى دهاليز العادات . لو قبلت عرضك لخسر كلانا هو مقبل عليه ولتوقفت أنا حيث أنت ولا تزلقت انت حيث لا تدرى ٠ لقد أريتنى أنك تراهن على الاحجام وهو أول محطة أردتك أن تنطلق منها فاذا أنت متشبث ومهموم على فراقه ٠

وهمس صوت الشيخ : قل له اننى لم أتخلص بعد من مثالب نفسى وما جئت الا متطهرا ٠ لقد فضحت نفسك حين عرضت حياتك للمزاد ٠ تخلص ولا تعتذر فما يعتذر غير المذنبين ٠

قلت للشيخ : لو رافقتنى الى عرس آخر لحاولت نفسى وألزمتها بمجاراة القوم · ولاريتك أننى أحسن الرقص وأحسن كذلك البكاء ·

وانتفض الشيخ : أنت تريد أن تزرع فى قريتنا الاحزان لو أسقطت دمعة على أرضنا فلن تنبت الا شرا · وانك لمشؤوم أيضا · قم فهناك مناحات وجنائز فى قرى أخرى هى فى حاجة الى بكائين · فمن اسكب دمعا كمن سفك دما · اجمع كمشة الهموم التى أتيت بها واياك أن تسقط منها قشة · اجمع همومك وغادر ·

ورفع يده يريد صفعى ولكنى فتحت عينى لأواصل السطر الذى توقفت عنده : وكان بطل الرواية معتوها ·

التابعى الاخضر

تونس فى 25 / 11 / 1986

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جلـول عـزونة

الحـرية والانتـاج القصصـى التـونسى

اولا : تقديم

للحرية مكان عظيم فى قلوب البشر وفى مشاغلهم وفى أحلامهم وبالطبع فى انتاجهم الادبى الذى يمثل مطامحهم وسير حياتهم وعصارة تجاربهم ٠

والادب التونسى الحديث ـ وهو رافد مهم من روافد الادب العربى ـ مسكون بهاجس الحرية سواء كتب هذا الادب قبل الاستقلال أو بعده ٠

فجل ما كتب قبل الاستقلال السياسى لتونس الذى تـم فى 20 مـارس 1956 ـ من قصص وبالخصوص من أشعار كان مشحونا بحب الوطن ، مناديا بالحرية لتونس ولشعبها بالانعتاق ، رافعا شعـارات الكـرامـة والمسـاواة وقداسة الذات البشرية كما نادت بها كل الديانات السماوية والـديـانـة الاسلامية منها بالخصوص وكذلك الثورات الانسانية الكبرى وفى مقدمتها الثورة الفرنسية والثورة الروسية ٠

فنجد الكتاب يبشرون بقرب التحرر «وبالصباح الجـديـد» «وبالفجـر» وبالخلاص وكأن أجيالا متعاقبة لا هم لها الا الحلم بشىء مفقود عزيز ، ترى غيرها من الشعوب تنعم به وتحرم هى من نعيمه وكأنها غير مؤهلة لذلك وليس لها من الكفاءة ما يبوؤها المكانة التى تصبو اليها ٠

وهذا الامل لا ينطفىء حتى فى أحلك الساعات ، وحتى فى ذروة الشك وحتى فى لحظات القمع العمياء وسأكتفى هنا بمثال وحيد من تلك الفتـرة وهو ما جاء فى رواية محمود المسعدى المعروفة « السد » فى آخرها وبالضبط

(*) من دراسات اللقاء بين الكتاب التونسيين والكتاب السوفييتيين حول الرواية ٠

فى المنظر الثامن منها (I) ، فرغم أن « السد » الذى يمثل التحدى والامل وبناء المستقبل قد تصاعد وعلا وانهار تماما :

«ميمونة : السد أشلاء ، السد أنقاض تساقط فى الهاوية» (ص 146) :

فان ميارى تقول لغيلان (ص 147) :

«ألا ترى سراجا فى منتهى الغاب منيرا ؟ انظر اليه يدعونا ، زجاج صفاء وعزم وأمنية «انظره قرارا فى الزلازل على الزلازل ...»

— Myhmouna : Mais le barrage n'est plus que membres dislogués.

Le barrage n'est plus que décombres s'écroulant dans l'abime.

Mayare, (s'adressant à Chaylane) - Ne vois - tu pas une lampe qui court au fond de la vallée ?

Regarde - là qui nous appelle, cristal et pureté, volonté, espoir.

Regarde - la, cette stabilité dans le séisme, contre le séisme. (2)

فهذا السراج المنير هو العزم ، وهو الامنية ، أى الحلم أى الحرية والرمز هنا واضح تماما لا يحتاج الى شرح ولا الى تأويل وان كان كتاب المسعدى

(I) **السـد** رواية فى ثمانية مناظر ، مهداة الى روح الشهيد فرحات حشاد ، ألفها محمود المسعدى سنتى 1939 و1940 طبعت الطبعة الاولى سنة 1955 بتونس وطبعتها الدار التونسية للنشر طبعة ثانية سنة 1974 ـ 275 صفحة انظر كذلك ترجمتها الى اللغة الفرنسية Le barrage التى قام بها عز الدين قلوز ـ مع مقدمة بقلمه وتقديم لجاك بارك
Editions Naaman - Canada (Québec) 1981 - 90 pages
(Jacques Berque)

(2) ترجمة عز الدين قلوز ص 89 .

هذا قد نال شهرة واسعة وأدرج فى برنامج التدريس الرسمى فى التعليم الثانوى والعالى وخصصت له الدراسات وحتى الكتب البيبليوغرافية (3) .

اما ما كتب بعد سنة 1956 من قصص وروايات فخص الحرية بمكانة مرموقة وان كان معنى الحرية قد توسع وتطور وتغير وهو شيء طبيعى نظرا لتطور سنة الحياة ولظهور معطيات جديدة ومشاكل جديدة .

ثانيا : الحرية بمفهومها التقليدى

وفعلا فقد واصل القصاص والروائى التونسى التغنى بالحرية كضرورة سياسية لاى شعب من الشعوب وأراد كذلك تسجيل البطولات والتضحيات التى ظهرت خلال فترة الكفاح ضد المستعمر الفرنسى وسأكتفى هنا ببعض الاشارات وببعض الامثلة .

ففى طليعة هذا التيار نجد روايتين لمحمد العروسى المطوى المولود سنة 1920 وهما حليمة (Halima) والتوت المر (Les mûres amères) وفيهما تساؤل عن دور المرأة فى المقاومة الوطنية وعن مقدرتها أو عدمها فى ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفيهما أيضا دعوة للتحرر من مرض اجتماعى كان (4) لمستعمر يشجع على ديمومته وهو ادمان المخدرات (التكرورى) وذلك بالتغاضى عن زرعه وبيعه واستهلاكه . وفى الروايتين المذكورتين أيضا رمز لكل هذه المعوقات ، ويظهر ذلك شفافا فى حالة احدى البطلات التى كانت مشلولة لا تستطيع الحركة الطبيعية ولا التنقل بمفردها ورغم ذلك يسكنها عزم وأى عزم .

---

(3) انظر كتاب : نور الدين صمود : **محمود المسعدى وكتابه السد** الدار التونسية للنشر ـ الطبعة الثانية 1979 ـ 174 صفحة .
انظر كذلك دراسة عبد القادر بالحاج نصر (بالفرنسية) وفيها دراسة عن السد و4 روايات تونسية اخرى Quelques aspects du Roman Tunisien. Maisonn Tunisienne de l'édition 1981 - 128 pages.

(4) **حليمة :** نشر دار بوسلامة 164 ـ 136 صفحة .
والتوت المر : الدار التونسية للنشر 1976 ـ 214 صفحة .

ولعل أهم الروايات التى تمجد هذه الحرية هى اطلاقا رواية محمد المختار جنات الطويلة جدا (Roman Fleuve) المعنونة : أرجوان (5) .

ومما جاء فى المقدمة التى وضعها لهذا الجزء محمد العروسى المطوى :

«التفت محمد المختار جنات الى نضال شعب ضحى فى سبيل الحرية والكرامة والعزة والعدالة وصمد فى سبيل ايجاد «الانسان» على هذه الرقعة من الارض ، وفى سبيل الانسان حيثما كان ، فكان من الطبيعى أن تكون الفترة التى تشملها رواية ارجوان تمثل فورة ذلك النضال وقمته ضد قوى الشر والطغيان والاستعباد منذ اندلاع ثورة 18 جانفى 1952 ...» (ص7 و8)

ويمكننى كذلك ذكر رواية عبد القادر بلحاج نصر : **الزيتون لا يموت** وهى مخصصة لذكرى مجزرة 9 افريل 1938 والتى ذهب ضحيتها عشرات القتلى والجرحى إثر اطلاق الرصاص على المواطنين العزل من طرف الشرطة الفرنسية وكانوا ينادون ببرلمان تونسى (6) .

ويمكن أن أضيف الى هذه القائمة ما كتبه عبد الرحمان عمار (ابن الواحة) وبالخصوص فى مجموعته القصصية : **وردة ورصاصات** وأقصوصته «بطولة» بالذات (من ص 192 الى 201) (7) .

ولعل كلمة الحرية كانت فى الخمسة عشر سنة الاولى بعد الاستقلال هى أكثر الكلمات ترديدا وأكثر المعانى شيوعا ، وأعمقها فى وجدان المواطن والكاتب على حد سواء .

---

(5) نشر الجزء الاول منها آخر سنة 1970 وصدرت عن الدار التونسية للنشر وهذا الجزء الاول يحمل عنوان طريق الرشد 507 صفحات .

(6) طبع الشركة التونسية للتوزيع سنة 1969 ـ 100 صفحة .

(7) نشر الدار التونسية للنشر ـ آخر 1970 وهى تدخل ضمن منشورات نادى القصة التابع للنادى الثقافى أبو القاسم الشابى بالوردية ـ تحت اشراف محمد العروسى المطوى ـ عدد 10 ـ 218 صفحة .

وليس من الصدفة فى شىء أن تكون أول صفحة من أول رواية تصدر بعد الاستقلال تحمل قصيدا عنوانه : الحرية :

«نسماتها قد حركت فى قلبى الحب الدفين
وبلفحها قد ألهبت فى الصدر أخدود الانين» ...

وذلك كتقديم الرواية التى تحمل عنوان : **سر المعركة** وهى من تأليف عبد الحميد محمد المنيف (8) ولكن هذا الحماس وهذا الاندفاع فى التغنى بكلمة الحرية سيصدم بالواقع المر والمتخلف ، واقع بلد نامى من البلاد التى رزحت قرونا فى التخلف وعشرات الاعوام تحت حكم الاستعمار المباشر وهذا ما حدا بكاتب القصة والرواية فى تونس من جل الشبان خاصة الى طرق مواضيع جديدة والى فهم جديد لكلمة الحرية .

ثالثا : الحرية بمفهومها الحديث

وفعلا فالحرية لم تعد تعنى فقط التخلص من الاستعمار المباشر وانما النجاح فى تحقيق السعادة للشعوب المكافحة من أجل لقمة العيش ومن أجل الرفع من مستوى عيشها ومن أجل رفع تحدى الاستعمار الجديد والامبريالية وضغوط الدول الكبرى .

واذا الحرية حريات ، فهى شغل شاغل لكل المثقفين والكتاب فى بلادنا منذ مطلع الستينات الى اليوم وقد برز ذلك جليا بالخصوص عند طرق موضوع **الالتزام فى الادب** فى الستينات وقد حبرت فى ذلك عديد المقالات والدراسات وأجريت استفتاءات وخصصت بعض المجلات شبه أعداد خاصة لهذا الموضوع ، وهذا الاهتمام ينم عن تحول نوعى مهم فى عقلية المثقف والكاتب فى تونس وان كان لا يخلو هذا المنحى من تأثيرات بعض موضات الادب الغربى وكذلك من توجيه السياسة العامة للحكومة والحزب الحاكم

---

(8) صدرت فى مارس 1957 طبع مطبعة العهد الجديد تونس ـ مع اهداء ومقدمة و12 فصلا 58 صفحة وتضمن الكتاب كذلك اقصوصتين : سحقا الرجال (17 صفحة) وفرض علينا القتال (28 صفحة فى 3 فصول) .

فى تونس التى كانت تعيش فى تلك الفترة تجربة ما يسمى بالتعاضد أو الاشتراكية التعاضدية ٠

ورغم اختلاف الاطروحات والايديولوجيات فقد كان أغلب الكتاب فى بلادنا ينادون بضرورة التزام الكاتب مع شعبه فى نضاله اليومى من أجل الكرامة والخبز ولكن بشرط أن يبقى المبدع حرا فى اختيار مواضيعه وأسلوبه وشكل التزامه ولم لا حرية اختياره وعدم الالتزام اطلاقا ٠٠٠

وقد برز ذلك خصوصا أمام ضغوطات عديدة سواء كانت من طرف السلطة أو من طرف الاجهزة الحزبية والادارية وعلى جميع المستويات وان كانت ضغوطها أكثر على المستوى المحلى الضيق وهذا الواقع يمكن تفسيره طبعا (9) ٠

ومن تلك القصص نذكر رواية البشير خريف **الدقلة فى عراجينها** (10) التى كتبها مؤلفها سنة 1966 وفيها حديث عن استغلال العمال (فى عهد الاستعمار) وعن استغلال المرأة فى نفس الفترة ٠

وهذه الرواية وأعدها من أنجح الروايات التونسية التى كتبت الى حد الآن ـ **نشيد ممتاز من أجل الحرية والتى بدونها لا يكون الانسان انسانا** وقد أتى هذا النشيد فى شكل سردى روائى بعيد عن الخطابة وعن الوعظ والارشاد ، بل منطلقا من تحليل الواقع المعاش وبالخصوص من تحليل عميق للشخصيات ولنفسياتها ولما يعترض طريقها من مشاكل وتذبذب وحيرة وشك ومصائب ٠

---

(9) من ذلك مثلا ما جاء فى احدى اقصوصات محمد رشاد الحمزاوى عن ضغوط ما سماه «بالبطاقة» (أى بطاقة اشتراك فى الحزب الواحد) والتى بدونها لا تقضى أية مصلحة ولا يمكن لمن لا يحملها أن يتحصل حتى على حقوقه ـ وهى اقصوصة تذكرنى باقصوصة لسلجنتسين عنوانها : «اليد اليمنى» وان كان موضوعها ، عدم الاحسان لمريض عجوز قضى أحلى اعوام شبابه فى الدفاع عن حرية بلاده وامنها ٠

(10) طبع الدار التونسية للنشر الطبعة الثالثة 1980 ـ 449 صفحة ٠

ومن هذا التوجه أذكر كذلك بعض أقصوصات محمود التونسى فى مجموعته **فضاء** وبالخصوص **أقصوصة صحن كفتاجى بالعظمة** (ص 33) وأقصوصة : **سيد مظلم** (ص 73) وكذلك : **زمن الفرجة** (ص 109) (11)

ففى الاولى يصور لنا كد الشغالين والفقراء من أجل الخبزة والجرى وراءها وفى الثانية يصف لنا دكتاتورا مثاليا وجو الرعب والاحباط الذى يخلقه من حوله فيخنق كل نفس وكل مبادرة .

أما فى الاقصوصة الثالثة فهو يقدم لنا مستقبلا كالحا لا أمل فيه ولا ضوء، وبالتالى بلا حرية ـ وقد استولى الجيش على السلطة فى بلد من البلاد النامية، بينما ينزل المثقف يتفرج على هذا التحول بكل سلبية (12) .

ومن القصاصين الذين تطرقوا بنجاح فنى لا بأس به الى موضوع الحرية يمكننى أن أشير الى كل من رضوان الكونى فى أقصوصته : **ثرثرة حول مسألة تافهة** وقد نشرها أول مرة بمجلة الفكر (عدد 9 ـ جوان 1966 ـ ص 30) (13) وفيها يتعرض لمشكل القيادة فى دول العالم الثالث ولمشكل وعى المواطنين المحدود ولخطر هذا الازدواج القاتل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحسن نصر فى مجموعته **ليالى المطر** ومنها بالخصوص اقصوصته : **وتهوى حبيبتى الخيل** (14) وفيها طرق ذكى لموضوع هزيمة العرب فى سنة 1967 .

---

(11) **فضاء** ـ نشر الدار التونسية للنشر ـ سنة 1973 تقديم محمد بن صالح بن عمر ـ 122 صفحة .

(12) انظر كتاب محمد صالح بن عمر : **أشكال القصة الجديدة** فى تونس ـ تونس 1972 وبالخصوص ص 49 وما بعدها : **محمود التونسى يسبر أعماق الاشياء** .

(13) محمد صالح بن عمر المرجع السابق (من ص 18 الى ص 20) .

(14) نشر نادى القصة ـ الدار التونسية للنشر 1968 ـ 178 صفحة .

والمواضيع الوطنية كانت ولا تزال تشغف كتابنا وان كانت طريقة كتابة هذا النوع قد تطورت بشكل كبير، فيه قطيعة مع ما كان سائدا قبل الاستقلال وحتى بعده مما يسميه تجاوزا بعض النقاد «بالادب القصصى الواقعى» (15)

وفى الحقيقة فان كل الادب الراقى ، كيفما كان توجهه وكيفما كانت المدرسة التى ينتمى اليها هو أدب يطرق باب الحرية لان الحرية ليست فقط فى ذلك المعنى الذى ساد العقول منذ التاريخ القديم أى منذ عشرات القرون قبل المسيح والذى يريد حصر الحرية فى استغلال الوطن من السلطة الاجنبية، بل صار مفهوم الحرية أوسع من ذلك بكثير وصار يشمل ـ منذ اعلان الثورة الفرنسية لحقوق الانسان بتاريخ 26 اوت 1789 ، بجانب الحريات الطبيعية (16) كل الحريات العقائدية والفكرية والمدنية من حق الشغل والمسكن والصحة والتعليم والثقافة ٠

وبهذا المفهوم الجديد للحرية ، أى بهذا المفهوم الواسع ، يمكن ان نعد كل أدب صادق الطرح ، له مستوى معين من النضج ومن الفنيات ، هو أدب يعمل من أجل الحرية وتدعيمها ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفى هذا السياق ، يمكننى اعتبار انتاج على الدوعاجى انتاجا يدخل فى باب أدب الحرية وان كان يطرق مثلا علاقة المرأة بالرجل وصعوبة التفاهم بينهما كما جاء ذلك فى مسرحيته : **راعى النجوم** (17) وغير ذلك من الانتاج سواء كان للدوعاجى أو غيره ٠

---

(15) اعتذر هنا عن ذكر انتاجى المتمثل فى المجموعة القصصية ٠٠٠ ويبقى السؤال ـ الدار العربية للكتاب 1981 112 صفحة انظر بالخصوص اقصوصات فاطمة (ص 94) عن مشكل فلسطين **ومات الدخان لا شىء ، الدود والافاعى ؛ والانتظار** وكلها تطرق بأشكال مختلفة موضوع **الحرية**

(16) «يولد الانسان حرا ويبقى حرا ، وله نفس الحقوق التى لغيره ٠٠٠» الفصل الاول من حقوق الانسان بتاريخ 26 أوت 1789 ٠

(17) **راعى النجوم** أعلى الدوعاجى مجلة **المباحث** جوان 1944 ثم نشرتها دار الثقافة ابن خلدون سنة 1969 على حدة مع تقديم لتوفيق بكار وترجمتها

رابعا : الخاتمة

نعم ان مفهوم الحرية قد تطور ووجب اذن ان نطور مفهومنا للادب الذى يطرق موضوع الحرية ووجب بالتالى اعادة النظر فى حدود ذلك الادب ·

فلم يعد فى استطاعتنا ـ نحن مواطنو العالم فى آخر القرن العشرين المسيحى ـ أن نقصر مفهوم الحرية كما يذهب لذلك مثلا أحد ابطال دستويفسكى ، كيريلوف .Kirilov فى Les Possédés الذى يختار الانتحار التقائى ليدلل على أنه حر تماما، بل لا يمكننا أن نقبل حتى تحريف الفيلسوف الالمانى فيشته Fichte الذى يعرف الحرية كالتالى : «ان احترام القانون الذى نضعه نحن بأنفسنا هو الحرية » (18) .

بل ان الحرية الحقيقية تكمن أحيانا كثيرة فى تجاوز القوانين والوقوف ضدها ومطالبة تجاوزها **ونقدها فى أقل الحالات** ، وهذا أقل واجبات الكاتب الذى يطمح أن يلعب دورا ما وأن يكون لاثره الادبى تأثيره على جمهور القراء، فهو مطالب أن يضمن له كأديب قبل كل شىء وكمواطن ثانيا «**الحرية المطلقة فى التعبير شكلا ومضمونا** ··· بكامل الشجاعة والجرأة ، ومهما كان الثمن ··· لان دور الكاتب فى (الوطن) العربى اليوم هو **دور قيادى** ومشاركة فى الحكم أحب ذلك الساسة أم لا يحبون أو رموا المثقفين فى السجون أو أحالوهم على المعاش قبل الاوان ، أو تملقوا ومنحوهم المناصب العليا فى الدولة ··· وهذا الدور يتسم دائما **بالصبغة النقدية** أكثر من صفة المدح ، والاطراء ودق الطبول لانه دور حر ··· لان الادب الناقد هو أدب نابع من الواقع بل من وعى الواقع وعيا تاريخيا قويا ··· وان كانت للكاتب

بالفرنسية مع مقدمة بالفرنسية بقلم صالح القرمادى 36 و31 صفحة ·
انظر كذلك Ecrivains de Tunisie - édit. Sindabad - Paris. 1981 - 230 pages.
وهو من تأليف توفيق بكار وصالح القرمادى ·

(18) انظر Article : *Liberté dans Alpha Encyclopédie* Grange Batelière - Paris (Genève et Bruxelles). T. 9 - P. 3606 à 3609.

رسالة ... فما عليه الا أن يوطد أركان الحرية ويعززها فى بلاده ، وأن يلقن الشعب معناها العميق ، حتى يكون لهذا الشعب غد أفضل حقا...» (19)

ومهما كان تنوع الانتاج القصصى والروائى بتونس (20) ومهما كان من تأثيره على القراء (وهنا لا بد من احصاء دقيق علمى لمدى رواج هذا الادب واقبال القراء عليه ومدى (ردود فعلهم عند قراءته) فان الحرية فى انتاجنا القصصى والروائى بتونس وبوطننا العربى الاكبر تبقى الى يومنا هذا مثلها مثل وضعها فى الحياة العامة والسياسية ـ غريبة تطلب ، وأملا نهفو الى تحقيقه ووهما وسرابا يتطلب منا جميعا عملا جبارا أدبيا ونضاليا وحلما أكثر منه ممارسة نبشر به فى انتاجنا ونحاول أن نخصص له حيزا محترما فى كتبنا وذواتنا حتى نصير والحرية توأمين .

جلـول عـزونة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

---

(19) عز الدين المدنى : **الادب والحرية مترادفان** ـ وهو بحث شارك به فى المؤتمر التاسع للادباء العرب الذى انعقد بتونس فى مـارس 1973 ـ انظره مطبوعا ضمن كتاب أعمال المؤتمر من ص 157 الى ص 159 .

(20) انظر كتاب : Jean Fontaine : 20 ans de littérature tunisienne M.T.E. 1977 - 160 pages.

محمـود بلعيـد

الـكـــــلاب

أكره الكلاب ، لا أفكر أبدا فى تربية كلب فى منزلى • لا ألاعب أبدا كلاب الاصدقاء ، عندما أزورهم فى منازلهم • عندما يقبل علي كلب مرحبا يبصبص لى بذيله الخبيث ، بعدما نبح وأطال النباح ، حين أضغط على زر الباب ، أتعود من الشياطين كلها ، وأقف لحينى ، ولا أتحرك ، ولا أنظر الى الكلب ، ولا أفكر أبدا فى ملاعبته ومداعبته ، ولا فى التربيت على ظهره ورأسه ، ولا حتى فى القاء كلمة نحوه :

انى اكره الكلاب •

عندما أزور بعض الاصدقاء ، أو بعض الاهل ، وأطرق الباب ، أو أدق جرسه ولا يهب الى كلب ولا أسمع نباحه الكريه ، عن قرب ولا عن بعد ، أفرح وابتهج ، وادخل الدار منشرحا منبسط الاسارير ..... لكن أحيانا ، أجـد فى قاعة الاستقبال كلبا من كبار الكلاب ، عظيم الرأس ، عظيم الجثة ، جالسا على أريكة وكأنه يترقبنى أو كأنه رب الدار الاكبر ، أو كأنه مدعو ثقيل الدم ثقيل الجرم ، أقبل قبل الموعد بساعة ، واستحوذ على أبهى أريكة فى صدر القاعة وانتصب • امتعض ، يجمد الدم فى عروقى وأبقى عند الباب برهة ، لا أتقدم ولا أتأخر ، ثم أخطو بهدوء وأجلس على أول أريكة تعترضنى ، ولا اتحرك ، لا يتحرك الكلب وكأنه يشاهدنى او لا يشاهدنى •••••• فأسر فى أعماقى ، وارتاح وأهدأ •••••• لكن أحيانا يقفز اللعين من مكانه بخفة ثـم يرفع رأسه ويطلق فى فضاء القاعة نباحا مزعجا فكأنه تفطن بحسه أنى أكره الكلاب •••••• ثم يثور فى وجهى بنباح قوى تتجاوب له القاعة ، وتهتـز له أركانها •

••••• أحيانا أخرى يطلب الكلب اذا كان من صغار الكلاب ، نباح الفرح والسرور ويقترب بسرعة وخفة وغباوة محركا ذيله طالبا منى أن أربت على ظهره أو أن أمرر يدى على رأسه ، أو أن أناديه باسماء اعتاد سماعها .....

معلنا اعجابى به ، مصرحا أنه وحيد فى نوعه ، وأنى لم أر أبدا فىحياتى كلبا مثله .

لا أفعل شيئا من هذا كله عوى الكلب أو نبح بل ابقى فى مكانى صامتا ساكنا وكأنى نحت من صخر لا تتحرك لى يـد ولا تتحـرك لى رجـل .... أحيانا أخرى ، ينزل الكلب من فوق أريكته بهـدوء وخفـة ، أو بتكـاسـل وتثاؤب وثقل ، ويشرع فى التمرغ على الزربية أمام عينى ثم يدنو منى فى صمت ويحاول الصعود فوق ركبتى غارزا مخالبه الحادة فى ملابسى فادفعه بكلتا يدى باشمئزاز وتقزز وأبقى منكمشا فى مكانى متأهبا لدفع هجوماته : انى أكره الكلاب .

وأحيانا ، عندما أدق الجرس يستقبلنى الصديق وكلبه يتبعه ، وندخـل الدار والكلب وراءنا أو أمامنا يبصبص لنا بذيله وينبح ، وندخـل قـاعـة الاستقبال ونحن نتعثر فى الكلب وهو يقفز بين أرجلنا وحولنا ويكاد يسقط واحدامنا .....

... ويبأس الصديق أو القريب فى النهاية من اقبالى عـلى كلبـه المـرح الحفى ، بعدما جلست وابتسمت . وجلس قبالتى وابتسم ... ويبقى الكلب يقفز بيننا وينبح ويحرك ذيله مرحا .... فيقوم فى آخر الامر الى كلبه وينهره نصف نهرة ، أو يأمره أن يأخذ مكانه فى زاويته المعهودة ، او ينبطح أمامنا على بطنه باسطا ذراعيه ، واضعا بينهما وهو يرمقنا بعينين متـوسلتين .. وتقبـل سيـدة البيت مضمخة عطـرا فى أجمـل زينـة وأبهـى فسـتـان ، مبتهجة ، مبتسمة ، مشرقة الوجه ، متألقة ، وتشاهد أول ما تشاهد كلبهـا الحبيب ، منبطحا حزينا يحرك ذيله القبيح ببطء ، فتتقلص ملامحها ، وتنقلب سحنتها وتقول متغيرة الصوت مؤبنة شادة غضبها بصعوبة ، محتجة على سوء تصرفى غير الحضارى ، وعدم احتفائى بكلبها المدلل :

ـ رأيت !! ليس لك حظ عنده !! ثم تمط شفتيها الحمراويين الملوطتين وتتابع ناظرة اليه بعطف ممررة يديها على كامل جسمه ، أنا يا عزيزى ، يا دودونى (أو اسم يشبه دودونى) أنا التى تحبك وفى ذلك كفاية ، انهم لا يعرفون قيمتك .....

.... أو تقول لزوجها اذا كان الكلب كلبه لا كلبها ، وهو يحب الكلاب وهى لا تحب الكلاب ولا تكرهها :

ـ كفاية ، اخرجه !؟ اخرجه !؟ دائما نفس السيناريو كلما اقبل علينا ضيوف ، وتلتفت الي طالبة التأييد ، فابتسم اليها محركا رأسى مؤيدا ، مشجعا ، متمنيا فى قرارة نفسى أن يؤخذ الكلب من ذيله ويرفع وهو يتلوى ويتخبط ويعوى ويلقى به خارج القاعة ، بل خارج الدار ، بعيدا ٠٠٠٠٠٠

٠٠٠ لكن لا يعبأ الزوج فى غالب الاحيان بكلام زوجته ولا بصراخها وانقلاب سحنتها ، بل يضع كلبه الحبيب على ركبتيه مبتسما ، أو يجلسه بجانبه منتشيا ويربت على رأسه وظهره ، ولا يلتفت الى زوجته و لايجيبها بكلمة ولا بحرف :

أشعر آنذاك بالخيبة وأتيقن بيأس ومرارة ان السهرة كلها ستقضى ونحن ثلاثة ورابعنا كلب أو خمسة وسادسنا كلب أو سبعة وثامننا كلب أو كلبة ٠

فى ديار أخرى عندما تدخل ربة الدار مرحبة مبتسمة تفوح عطرا وأقوم اليها محييا ٠٠٠٠٠٠ ويقع نظرها على الكلب الرابض على الزربية العاوى المتحسر ، يربد وجهها وتتقلص ملامحها وتنقلب سحنتها على مشهد منى فكأنها كانت ملاكا فانقلبت جنية دفعة واحدة وتلتفت الى زوجها مكشرة عن أسنانها كلها وقد تسرب بعض أحمر الشفاه وتصيح فيه بغضب وعنف وصوت مرتفع حاد :

ـ اطره ؟! اطرده ؟! بسرعة اطرده ؟!! بلية وشقاء هذا الكلب اللعين انى لا أطيقه وتعرف أنى لا أطيقه ، أخرجه ؟!! أخرجه ؟!! أخرجه الآن أخرجه وبسرعة ، الكلاب للحراسة فى الحدائق ، فى السقائف ، وخلف أبواب الديار، لا فى قاعات الجلوس ، وفوق الارائك والزرابى ، تتشمم الزائرين وتفزعهم بقفزاتها ونباحها وبصاقها المتناثر ٠٠٠٠٠٠

ينزل هيجانها بردا وسلاما على صدرى وشظايا ملتهبة على رأس زوجها ٠٠٠٠ ويخرج الكلب من قاعة الاستقبا لويطرد شر طردة وأشنعها ، ويغلق الباب بقوة وعنف ويبقى الكلب يعوى وينبح من ورائه ٠٠٠٠٠٠ ثم ييأس ٠٠٠٠ وينقطع نباحه ٠٠٠٠٠٠ ويكف عواؤه ٠٠٠٠٠٠ ويهجع ٠٠٠٠٠ ويبتعد ٠٠٠٠٠ أهدأ بدورى وأستريح وأتنفس الصعداء متيقنا أنى سأقضى سهرة طيبة ممتعة مريحة ٠٠٠٠٠ انى أكره الكلاب ٠

.... أما اذا بقى الكلب فى القاعة أحب رب الدار أم أبى وأحبت ربة الدار أم كرهت ، فانى أوثر الصمت ، الصمت الثقيل ولا أفوه بكلمة فى شأنه ولا أعيره اهتماما رغم كثرة تعلق صاحبه أو صاحبته أو صاحبيه به ..... أوثر الصمت والسكون ولا أسأل الصديق ولا زوجة الصديق عن اسم الكلب ولا عن جنسه ولا عن نوعه لانى اعرف مسبقا بدون شك انه حالما أقول كلمة واحدة او القى سؤالا واحدا أنهم سينطلقون فى حديث طويل مدة ساعة أو ساعتين أو ربما طيلة السهرة كلها عن مزايا كلبهم وخصائصه وعن محبته الصادقة لهم ومحبتهم الخالصة له ، ومن أى بلاد استجلب وكيف ولد وكيف هب ودب وكيف يأكل ومتى يشرب وماذا يحب أكله وماذا يكره ، وكيف أطلق نبحاته الاولى وكيف أطلق نبحاته الثانية، كيف كان يعمل «وورر» ثم صار يعمل «وو ـ وو» ، ثم «عو عو» وانهم كادوا يموتون فرحا عند سماع نباحه لاول مرة وكانهم استمعوا لاجمل صوت وأعذب أغنية فى الدنيا .... وكيف يقفز وكيف يخرج لسانه الجميل الاحمر ، الصغير وكيف يحرك رأسه وذيله الطويل أو القصير ويرقص رقصاته الشيطانية وكيف يفطن لقدوم سيده او سيدته او قدومهما معا وينطلق الى الباب نابحا مهللا قبل ا ن يطرق او يدق جرسه او ناقوسه ، او قبل ان يدار المفتاح داخله ثم يرسل نبحات الفرح محركا ذيله مرحبا .....

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلك كله ولاكثر من ذلك لا اسال الصديق أو القريب ولا زوجة الصديق أو القريب عن اسم الكلب ولا عن جنسه ولا عن نوعه ولا عن فصيلته :

انى أكره الكلاب .

.... فى سهرات أخرى عندما يشرع فى الحديث عن الكلاب أحاول بجهد من حين لآخر تغيير مجرى الحديث والحديث عن الاخبار المتروجة والشائعة أو الحديث عما حدث وعما سيحدث كما حدث ما حدث أو الحديث عما يتوقع حدوثه بعدما حدث أو الحديث عن الاخبار المنتشرة فى المقاهى وبين الناس والاخبار التى لا تنشرها الجرائد ولا المجلات بل تنشر عكس ما ينبغى نشره.. فينساقون فى أحاديثى بخبرة ودراية ومعرفة كاملة ويعلقون على كل المواقف بذكاء وفطنة ويحسمون الامر ويدلون بأحكام جلية واضحة لا تستوجب استئنافا ولا تعقيبا . ثم سرعان ما يعودون الى الحديث عن الكلاب ...

ويمضون يقصون بدون توقف ، أقاصيص الكلاب ، يوردونها بحذافيرها من تاريخ ولادة كلب من كلابهم ، منذ نشأته ..... يتحدثون عن آبائه الاولين.. وعن أجداده الاقدمين ..... ويقوم رب الدار ويتجه الى خزانة من خزائنه الثمينة بل يفتح أجمل خزانة فى صالونه وأندر خزانة ثم يعود الينا بشهادة ولادة كلبه ، شهادة صحيحة صريحة لا غبار عليها ، تثبت تاريخ الولادة وساعة الولادة وترسم اسم الاب والام والجد والجدة لابيه ولامه ..... والسلالة بأكملها ..... ويقدم الشهادة بكل وقار وكأنه يقدم أعز شيء لديه أو كأنه يقدم مخطوطا نادرا نفسيا ، لا يقدر بمال لكتاب ضربت شهرته الآفاق .... ثم يقدم صورة أبى الكلب وصورة أمه ثم صورة جده لأمه وجدته لأبيه ، ثم صورة خالته وابنة خالته ..... كل ذلك فى غاية من النظام والترتيب ، ثم يقدم لنا بعض خالاته وعماته واخوانه واخواته التى تعيش فى انكلترا او الكندا او فى النمسا أو فى المانيا الغربية ..... أو سويسرا . وأمد يدى بكره وأشاهد الام والاب . ومن اللياقة والصور تقدم الي بانتظام لا قبله انتظام ولا بعده ، ان انظر واطيل النظر بمضض وضيق ..... ولا يجب ان اقع فى خطأ ولا فى خلط وخبط ، ولا يجوز ألا أفرق بين الجد والجدة ، ولا بين العمة والعم ، ولا بين جد الكلب لامه وجدته لابيه ، ولا بين عمه وابن خاله ..... انظر رغما عنى وكأنى انظر الى رؤوس شياطين والصور تتهاطل علي ..... وأسمع ، رغما عنى بدون أن أنصت أو أعير اهتماما ، حكايات وأقاصيص لا تنتهى ..... كيف تقتنى الملابس الصوفية الواقية مائة فى المائة من البرد ومن داء روماتيزم الكلاب ..... وكيف تجلب خصيصا من أوروبا ومن أمريكا ..... وأين تباع .... وعناوين الصيدليات المختصة فى بيعها ... وكيف ذهبوا بالكلاب الى الطبيب البيطرى ..... واسماء أمهر الاطباء البياطرة وعناوينهم ..... وللكلاب دفاتر علاج مرقمة مدققة ، ولهم تلقيحات يجب القيام بها .. وأحسن أوقات التلاقيح ...، وانسب أوقات الفحص الوقائى .. والفحص الاجبارى كل سنة .... وأفكر ..... فللكلاب الحق كل الحق أن يكون لها طبيب يتعهدها ويعالجها ..... وملايين من البشر ليس لهم الحق فى العلاج .... يموتون جوعا وبردا ومرضا ... يجهلون معنى كلمة وقاية .... لم يذهبوا مرة واحدة فى حياتهم الى طبيب ولا حتى الى طبيب بيطرى .....

دعيت ذات يوم الى سهرة .... تلاقى فيها لسوء حظى عدد كبير من المدعوين لهم باع فى معرفة الكلاب ودراية كاملة فى تربيتها ..... ولكل واحد منهم كلب أو كلبان أو شرذمة من الكلاب .....

..... وانطلقوا من أول السهرة يتحدثون عن الكلاب بدون مقدمة .... وكانت كلبة ربة الدار كلبة سوداء صغيرة الحجم شمطاء مكركبة الرأس ، قصيرة الذنب ، وشعرها الغزير الطويل يحجب عينيها وأذنيها وأنفها .... تقفز من مدعو الى آخر وتخرج لسانا أحمر صغيرا وتنبح نباحا جادا .... وكل واحد من الزائرين يمسح على رأسها ، ويربت على ظهرها ويداعبها فتكثر من النباح والقفز ..... وسيدتها تبتسم مزدهية مبتهجة بعبث كلبتها الصغيرة المدللة .... ثم شرعوا فى الحديث عن الكلاب بحمية لا مثيل لها... وجعلوا يتناقشون بحماس شديد عن أجمل الكلاب فى المعارض الدولية والاسواق العالمية ، وأحسن الكلاب وأجدى الكلاب للصيد والقنص ..... وعن الكلاب السريعة الحركات والتنقل التى ترفع رؤوسها عند العدو .... وكثر الحديث واشتد حول الكلاب الانكليزية والارلندية ذات النظرة الذكية المتقدة ، والعيون الداكنة التى ليست بالواسعة ولا بالكريهة الضيقة وعن الارجل القائمة المستقيمة ، الرشيقة عند الخطو والتنقل لا يخونها انحناء ولا اعوجاج ولا انفراج ، تلمس الارض وتكاد لا تلمسها عند الركض ولا سيما عند العدو ..... وعن الكلاب ذات الرؤوس المستطيلة المتناسقة القسمات ليست بالعظيمة الغليظة الثقيلة ولا بالصغيرة الحقيرة التافهة ، عريض ما بين الاذنين يفضى متسعا للدماغ وناتىء ما فوق الحاجبين ، منفصل عن الجبين كل الانفصال .... والانف قائم طرفه غليظ متسع ندى يلمع ، أسود شديد السواد أو كستنائى أو أبيض أو برتقالى أو وردى أو أصفر كالليمون ، والمنخران متسعان شديد الاتساع ، والشفاه رقيقة دقيقة ليست بالمترهلة ولا بالغليظة ، والشدقان متوازيان نفس الطول ونفس العرض أو يكاد ، والاسنان قائمة شائكة قوية حادة ناصعةالبياض موفقةالتداخل بدون اعوجاج ولا اصطدام ولا ازدحام ..... والاذنان ليستا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، حريرية الملمس تهب قائمة عند أدنى حركة أو حس ، والرقبة ممتدة ليست بالطويلة ولا بالقصيرة وليست بالغليظة ، ولا بالهزيلة الظاهرة ، مقوسة دائما خالية أبدا من تلك الجلدة المتدلية الكريهة ..... والصدر مرتفع عريض ، والاضلاع مقوسة تفضى متسعا للرئتين ، والسيقان الامامية مستقيمة قوية العظام ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صلبة ، والكوعان حرة عند التحرك ، والذنب ملتصق بخط الظهر متوسط الطول ، ولا يتجاوز طول الفخذ ، يميل الى الانحدار ، بدون اعوجاج لا ينحرف الى اليمين ولا الى الشمال مقوس قليلا فى شكل المنجل ، وشعره حريرى يبتدىء لا عند أصل الذنب بل بعده بقليل ويزداد طولا حتى منتصف الذيل ثم يزداد قصرا حتى آخره ، وينحدر الشعر خصلات خصلات وينسدل بدون تموجات لا لف ولا دوران ٠٠ ولا يجب للكلاب ان تكون لها نظرة تائهة أو حائرة ولا بلهاء ولا مستكينة ذليلة حمقاء بل يجب ان تكون النظرة ذكية شديدة تتقد نارا ، وأن تكون لها ثقة عند النهوض وعند القعود والانتصاب وان تكون لها شدة وقوة عند النباح بدون ضعف أو لهاث ، وشجاعة واقدام وعنف عند العراك وسرعة ودوام عند العدو وراء الطريدة أثناء الصيد ٠٠٠٠٠ .... وجعل كل منهم يتحدث عن كلابه كلبا كلبا،بدون أن يستثنى واحدا منها عن عمد او غير عمد ٠٠٠٠ وشاطت السهرة برائحة الكلاب ، ونباح الكلاب ، وهدير الكلاب وعوائها ، وانطلاقها فى الجبال والغابات وفى البرارى والصحارى متشممة متحسسة مادة رأسها وانفها واذنيها ، متبعة بدون اضطراب ولا تردد ، بسرعة وذكاء وفطنة وخفة وعجلة تنقل الحجل والسمان ، الارانب والثعالب وابن آوى والغزلان مشيرة الى اصحابها بنباح كأنه نداء أو خطاب الى أماكن التدرج والقبرة ، مندسة بين الاشجار والحشائش فاضحة مخابىء دجاج الحقل ودجاج الماء عند الجداول والوديان والغدران ٠٠٠٠٠٠ ثم ٠٠٠٠ ثم انطلاق الكلاب فوق السطوح والجرى وراء اليرابيع البرجية والثعابين والحيات والقنافذ فى الليل وفى النهار وعند الفجر وعند غروب الشمس وفى الاسحار ٠٠٠٠٠٠

٠٠٠٠ وصار من بين المدعويين من صار يعوى ككلب ٠٠٠٠ ومنهم من انطلق مادا رأسه يتشمم ككلبه أو كلبته اثناء الصيد ٠٠٠٠٠٠ ومنهم من جعل يده وراء ظهره وطفق يحركها كذيل كلبه ٠٠٠٠٠ ومنهم من انقلب يكر ويكشر عن انياب طويلة حادة تشبه انياب كلب من كلابه ٠٠٠ ومنهم من انطلق يقفز فوق الارائك والطواول ويتشاجر مع كلاب مجاورة ٠٠٠٠٠٠ وهاج هائجهم٠٠ واشتد العراك ٠٠٠ وعلا النباح ٠٠٠٠ وثار الغبار ٠٠٠ فقمت لحينى وغادرت القاعة ٠٠٠٠ وفارقت الدار وانطلقت اعدو ٠٠٠٠ اقتفى اثرى رب الدار وجعل ينادينى ويعدو ويصيح وينبح ٠٠٠٠٠ فالتفت اليه فاذا به كلب ، كلب تماما، يركض ورائى بأرجله الاربع ٠٠٠٠٠٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وجعلت أجرى أكثر فأكثر ..... والمدعوون كلهم يجرون ورائى ويطلقون نباحا شديدا مزعجا ..... وانا اجرى والعرق يتصبب منى .... اجرى والهث واشد على صدرى واجرى وركض الكلاب يزداد خلفى ..... ونباحها يصم أذنى وأجرى .... ورئتاى تكادان تخرجان من صدرى ..... وصلت الى منزلى ..... دفعت الباب بشدة ودخلت ، وصفقت الباب من خلفى ... استلقيت على الارض وصدرى يهتز ، يعلو وينخفض .... والعرق ينبع من كامل جسمى ... بقيت ساعة الهث فاغر الفم ، الهث .... ونباح الكلاب يخترق أذنى الى دماغى ..... ثم نهضت ..... وشاهدت من وراء النوافذ باشمئزاز شديد بعض الكلاب تقف على أرجلها الخلفية ،وترمى الى بشرر من عيون متقدة تلتهب ، ثم تهتز وتحرك رؤوسها وتنبح ..... ثم ترفع رؤوسها وتعوى عواء طويلا محزنا ، ينخلع له صدرى .....

.... بقيت الكلاب تحوم حول الدار الليل كله ، تنبح بدون هجعة ولا انقطاع ..... وفى الصباح فتحت الباب قليلا طالبا الفرار فقفزت عدة كلاب نحوى ، فأغلقت الباب لحينى .. وبقيت انظر من النافذة .... الكلاب تحت الشعر وسط الحديقة ..... وبعضها فوق السطوح .... أشعر بها تركض فوق رأسى وتنبح ، شاهدت تسلقها عبر قضبان النوافذ .... انظر من خلال النوافذ ... كلاب سوداء شديدة السواد متعلقة بالقضبان ، كلاب بيضاء ناصعة البياض كالقطن ، كلاب مسعورة ضاربة حمراء كالدم أو صفراء كاللهب ..... أسمع هديرها وكريرها واحتكاكها بالجدران ، واصطدامها بالابواب والشبابيك ..... اتجهت الى باب المطبخ خلف الحديقة علنى أجد منفذا ..... فتحت الباب قليلا ... كرت بعض الكلاب المترصدة ، وتأهبت للانقضاض والفتك ..... عدت وأغلقت الباب بسرعة .... بقيت الكلاب تتدافع على الباب بشدة ... وتصرف اسنانها ويعلو نباحها مرعبا يقصف كالرعد .....

بقيت أياما فى المنزل .... لا اكل طعاما ولا اشرب شرابا .... اسمع نباح الكلاب بدون توقف ..... بدون هجمة ولا انقطاع ..... اشاهد تنقلاتها فى الحديقة .... اتتبع صعودها ونزولها من السطوح عبر النوافذ.. بقيت ..... اسبوعا ..... اسبوعين لا آكل طعاما ..... ولا اشرب شرابا .... الكلاب تكر وتفر تنبح وتتنادى ..... تهدر وتتشاجر ....

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتدفع الابواب والنوافذ ٠٠٠٠٠ ويطلق بعضها من حين لآخر عويلا موحشا ٠٠ شديدا عميقا ٠٠٠٠ يقشعر له جسمى كله ٠٠٠٠٠ فاهتز وارتجف تقبل لندائها كلاب سائبة كلاب أخرى من ديار بعيدة ومجاورة ٠٠٠٠٠٠ تقبل مسرعة من كل الجهات ٠٠٠٠ وتحوم بدورها حول الدار متشممة ورائحتها الكريهة تشد لى أنفاسى ٠٠٠٠٠ ورؤوسها ممتدة ناتئة قائمة ٠٠٠٠٠ وانطلقت، تنبح ، الكلاب كلها دفعة واحدة تنبح ، تحرك رؤوسها وتنبح بدون هجعة ، تنبح بدون توقف ، تحرك رؤوسها وتنبح بدون هوادة تنبح وتنبح ٠٠٠٠ وانطلقت انبح ٠٠ انبح واثب ٠٠٠٠ واركض وسط الدار وانبح ٠٠٠٠ واندفعت أدور حول نفسى بسرعة .... وأعدو وأنبح طالبا الخروج ... مرآة الحائط قبالتى ٠٠٠٠ كلب غريب الشكل ٠ غريب الصورة ، عظيم الرأس عظيم الجثة ، أحمر العينين ٠ يكشر عن أنياب طويلة شديدة الطول شائكة ويصرف ٠٠٠٠٠٠ اركض ٠٠٠٠ وأقف الى الكلاب من رراء النوافذ٠٠٠ طالبا العراك ٠٠٠٠ وانبح ٠٠٠٠ واستشاط النباح بيننا واشتد واتقد شرره ٠٠٠٠٠٠

واندفعت الى الباب ٠٠ واندفعت الى الخارج من الباب الامامى ٠٠٠٠ اجرى وانبح ٠٠٠ اركض واقفز ٠٠٠٠٠٠ وابتدأ عراك عنيف بينى وبين الكلاب ٠٠٠ اقفز على رجلى الخلفيتين وانقض واعرر مخالبى وانشب انيابى .. واهرش .. الدم يسيل ٠٠٠٠ الكلاب هاجمة ٠٠٠ انقض افتك ٠٠٠٠٠٠ الكلاب مندفعة٠٠ ثار الغبار وارتفع كثيفا ٠٠٠ حمى العراك واشتد ٠٠٠٠ وطال ٠٠٠٠ وانقلبت بعض الكلاب تعوى متألمة ٠٠٠٠٠ وبدأت كلاب اخرى تفر مخفية ذيولها بين ارجلها ٠٠٠ وانبح واجرى وراءها ٠٠٠ اقتفى اثرها ٠٠٠ تبتعد عاوية ٠٠٠ وتلتفت من حين لآخر مذعورة هلعة ٠٠٠٠ فرت كلها واختفت ٠٠٠٠ وغابت عن البصر ٠٠٠٠ بقيت اتنقل فى كل مكان ٠٠٠٠ ابحث بعينى علنى اشاهد كلبا عن قرب او عن بعد ٠٠٠٠٠ ابحث فى الحديقة ٠٠٠٠ وتحت الاشجار ابحث انبح ٠٠٠٠ والدم يسيل من رقبتى ٠٠٠٠٠٠ احوم حول الدار وابحث واصعد فوق السطوح ٠٠٠٠٠ وأنزل ٠٠٠٠٠ واهتز وانبح ٠٠٠٠٠ الى النجوم ٠٠٠ أرفع رأسى وانبح الى القمر ٠٠٠٠٠٠

محمود بلعيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

علـي العبيـدي

« حكـــايـة الحكـــايـة »

① ـ جنيـن الحكـايـة :

لم يعد بامكانه تثبيت عينيه في شيء محدد . فالقطار قد أصبح يطوى الارض وما عليها بسرعة مهولة . ومع ذلك فانه ما زال فى حالة شخوص كما لو كان ينظر الى نقطة دقيقة دقة الالكترون أو إلى جرثومة عبر مجهر مخبرى .

ولو حاول لما استطاع تبين أى صوت مما تبثه الكائنات والاشيـاء المحيطة به . كل ما هو مسموع يأتى متوازيا متوحدا ومتنافرا فى الآن نفسه بشكل لا يستطيع المرء تتبع صوت منه أو حتى سبر طبيعة باعثه وكنهه . ورغم ذلك ظل فى وضع المصغى الى كلام يبدو مملوءا بالتشويق .

وهـو فى وضعه هـذا ، لم يكـن يعبأ بنظـرات استغـراب الفضوليـيـن والفضوليات الذين من حوله ، سواء كانوا من الجالسين قبالته أو من المارين الباحثين عن مكان للجلوس . فهو متعود على ذلك . متعود على أن تجحظ عيناه وعلى القيام بحركات كما لو كان يتكلم بالهاتـف أو .. يتحاور مـع شخص حقيقى . وكثيرا ما فاجأه بعض أصدقائه بالشارع يتكلم وحده . يتكلم بكل جدية وبحماس شديد وتلقائية مفردة ..

دأب على هذا السلوك منذ أعوام وأصبـح معروفا ومشهورا بـه فى كـل الاوساط التى يعاشرها . وكم هى كثيرة : فهو كثيـر التردد عـلى المجالس الادبية ومنابر العلوم ونوادى السينما واللقاءات السياسية . له رأى بل آراء فى كل مجالات النشاط الانسانى يعبر عن وجهة نظر ونقيضتها ، يبدى اعجابه بهذه المسرحية مساء ثم ينقلب صباحا فينسـف أسسها جملـة وتفصيلا . يقضى الشهور يدعو ويشهر لمجموعة فكرية أو أدبية ويعدد محاسنهـا ولكنه مع اطلالة موسم آخر يبتكر لنفسه موضوعا لا يقل طرافة عن سابقيـه . اذا تكلم فى ندوة أو ملتقى أصغت الجموع كما لو تكلم المسيح أو لينين .

كثيرون هم رجال السياسة أو النقابيون أو المبدعون الذين يخشون صولاته وجولاته .. وكثيرون هم الشعراء الذين خلقهم من عدم : فلقد دعا لهم بلا كلل ولا ملل حتى أقنع بهم مجمل المتخصصين .. ومن خلقه أيضا زعماء فى النقابة وفى السياسة ..

عندما يتكلم لا يجرؤ أحد على دحض مقولاته .. فقوله ينم عن معرفة دقيقة بالموضوع ودراية لا تشوبها شائبة . وكلامه رغم تلقائيته مسترسل يدل على تدبير فكرى ومنطق متين ..

قادر على كل شىء .. وعاجز إزاء أى شىء ..

يقدر فيما يقدر على التحريض وفتح الآفاق فى كل موضوع يلمسه أو شأن يهتم به : يجد الحلول لكل طالبها ، ولكنه بالمقابل لا ينجز شيئا . ناقد فنى ماهر ولكنك لا تعثر له على أثر مكتوب ، خطبه حكايات وقصص وأمثلة من الواقع يسوقها بأسلوب متماسك وجيد . لو دونها ونشرها لاستقبلها النقاد والقراء باعجاب نادر . يتابع نشاط جميع الحركات السياسية فيقرأ برامجها ويلاحق مواقفها ويبرز أزماتها ومآزقها الايديولوجية ويقدم لها التحاليل المواتية والمطابقة .

لا ينتمى لاحد .. وليس لاحد سلطان عليه ..

يحلو له أن يدعو إلى أمر أو الى خطة ولكنه لا يمارسها ولا يشارك فيها . ثورى مولع بالثورة ويتمناها ويحلم بها .. ويشتهيها كما يشتهى امرأة لعوبا ولكنه معرض عنها بكل ما أوتى من قوة .

تنتابه أزمات صمت لا تفسر . يعرض عن الكلام الساعات الطوال ويلبس الصمت حتى تخاله طبعا متأصلا فيه . تتجمد عيناه وينظر بها فى مطلق مفن كأن به مسا من شىء قد يكون الجنون .. وعندما يعود الى كلامه وحركيته وتواصله ينتابك شعور أكيد أن مواسم الصمت عنده هى من الضرورات الفيزيولوجية لا غير .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

② ـ الحكـــايـة الاولـى :

... ها هو الآن فى احدى محطات صمته عديم الحركة فى تعارض خبيث مع ضجيـج القطار وصخب راكبيه .

يسير به هذا القطار من مدينة تونس متجها الى « صفاقس » حيـث تنتظره خطيبة أخيه . كان سيقوم بهذه السفرة مع شقيقه الا أن أمرا غريبا منعه من ذلك . وما كان يود أن يسافر بهذه السهولة لو لم يكن ذلك الأمر الغريب الذى طرأ لاخيه منذ يومين . فأمر أخيه وخطيبته لا يعنيه ، وعلاقته بها ليست مما تعود الاهتمام به . لكن ما جد أيقظ فيه نوازع ما كان يتوقعها ولم تعترضه فى حياته . فقرر السفر وملاقاة خطيبة أخيه فى الموعد والاسرار لها بالأمر .

... والمشكلة القائمة أمامه الآن أنه لا يعرف بعد ما سيسر لها بـه . لـم يحدث له مثل ما يحدث له الآن : فهو المتعود على الكلام فى الوضعيات وقص شتى القصص وافتعال مختلف النوادر والاكاذيب واستنباط النتائـج وفك الالغاز مهما تشعبت العقد ، يجد نفسه ازاء أمر لا مخرج له منه اذ لا قبل له به وربما لا قبل لاحد به .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ماذا سيقول لخطيبة أخيه ؟ ماذا سيقول لهذه المعلمة التى تعيش فى مدينة مغلقة ؟ ما هى الحكاية التى سيحكيها لها ؟ لو تعلـق الأمـر بالأسلـوب أو بالطريقة التى سيصوغ بها الحكاية لما تطلب منه هذا التخمين القوى . هو قادر على أن يقص أية حادثة أو نادرة أكثر من ألف مرة فى اليـوم منوعا فى الاسلوب أو المنهج ومرتبا الاحداث بأشكال مغايرة ، كل مرة : هذه لعبة تدرب عليها وحذق فنونها دهورا فعبث بأصولها وأسس مـن حطامها أعجازا مـن الحكايـات ..

أما هذه المرة فالأمر مختلف تماما .. انه مجبر على أن يحكى الحكاية لنفسه أولا .. فيقتنع بها ليكون قادرا على تبليغها الى الآخرين . ولكن بماذا سيحدث نفسه ؟ والامر حدث بشكل ليس له شكل .. وبصورة ليست لها صورة :

انها أزمة .. أزمة ليس لديه بما يواجهها ولو بوسيلة متصنعة كما تعود أن يفعل فى شتى الوضعيات .

وراح القطار يلف المسافات غير عابىء بما يختلج فى صدر صاحبنا وغير مبال بالحوارات الحادة أو اللطيفة التى تجمع الراكبين .

وبدا لصاحبنا فى مرحلة أولى أن القطار قد علم بأزمته وعجزه ازاء المسألة المطروحة أمامه ، فراح يقرب المسافات ويقلص من الزمن القصير المتاح له للتفكير وحبك الخطط السردية ليواجه بها خطيبة أخيه .

وفى مرحلة ثانية اقتنع بأن صراعه مع القطار قد تجاوز البعد الزمنى الظاهرى : فالقطار واصل فى زمن معلوم حتما . وصفاقس بخطيبة أخيه مطلة لا محالة فى نفس ذلك الزمن المعلوم . ولذلك راح هو الآخر لا يعيأ بسرعة القطار على حقيقتها وحقيقه ما ستؤدى اليه . فركز انتباهه بعمق صوفى وحول سرعة القطار الى وقوف أصم . وجعل من ضجيج القطار الموقع صورا مختلفة متنوعة وطرقا متصادمة لمجموعة من الاحتمالات التى قد تطرأ على ما سيحكيه ..

وتحرك وهو الثابت .. وأبحر وهو الغريق .. وصال وجال عبر كل الفكر فحطمها جميعا وارداها حبات دقيقة لا بصرية .. وأسس منها أشياء ترفض البناء ذاته .. واثر كل بناء لا مبنى يجد نفسه فى النقطة الاصلية .. أو « اللانقطة » .

أبطأ القطار كثيرا فى التوقف . وما ان فعل حتى بدأ يلفظ الناس والادباش والبضائع بدون تمييز . وسرعان ما خلت أرصفة محطة صفاقس من كل الناس ومن كل شىء . ونزل المسافر المغلوب على أمره ببطىء غير معهود منه . وتماشى عاديا يحمل بين جنبيه ألفا من الاسئلة ومثلها من الاجوبة . وعندما وصل قبالة خطيبة أخيه لم يعبأ بدهشتها بل سارع الى مصافحتها وتقبيلها مرتين ، ولكنها ما لبثت أن أطلقت سؤالها المنتظر وبحيرة ملونة بشىء من الاحتجاج :

ـ « أين أخوك ؟ ألم يكن من المفروض أن تأتيا معا ؟ »

أجابها بابتسامة .. ثم تظاهر بالبحث فى جيبه عن تذكرة السفر .. ولكنه نطق أيضا قائلا ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ « حكاية طويلة .. سأرويها لك فى الطريق .. »

ولم تكن مقاومتها قوية عندما وضع يده على كتفها ودفعها بلطف نحو باب المحطة .

وخلال الطريق الطويل المؤدى الى « باب الديوان » استطاع أن يثرثر طويلا قبل أن يقول ما لاخلاص له منه . ولم تكن هى تفهم شيئا مما يقول أو ربما لم تكن تستمع بانتباه الى حديثه . واستطاعت رغم استرساله أن ترص كلمات كلها سب وشتم لخطيبها . وهكذا كان حوارهما متنافرا ومتناثرا فى نفس الآن شأنهما فى ذلك شأن مرشحين لانتخابات رئيس الجمهورية بفرنسا وهما يتواجهان بالتلفزيون . واثر احدى فواصله النادرة قالت :

ـ لا .. ولكنه خاطبنى منذ يومين بالهاتف وأعلمنى أنه نجح فى كل الامتحانات وأنه قادم معك .. وها إنك تعلمنى بالعكس لماذا هذا الكذب المتعمد ؟..

وتوقف عن السير والكلام لأول مرة منذ خروجهما من المحطة . ولم تلبث هى أيضا أن كفت عن المشىء والتفتت اليه تريد الكلام فبادرها قائلا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ « لقد مرت عليه سنوات عديدة وهو يفشل فى نفس الامتحانات مثل هذا الفشل .. وضاقت به الحيل فقال لك ما قال . ثم فضل الانسحاب وهو أمر عادى جدا .. »

قال ما قال باللهجةالتى أتيحت له وبنبرة ما كان يحسب أنها ستصدر عنه ولكنه شعر براحة لا توصف وهو يراها تكف عن السؤال وتواصل سيرها ، لبث برهة بتأملها ثم تماشى ملتحقا بها لا يلوى على شىء اذ بداخله أحاسيس وفكر ...

③ ـ الحكاية الثانية :

هى أيضا من اللواتى فشلن فى الدراسات الجامعية . فاضطرت الى الانخراط فى سلك التعليم الابتدائى . وهى لم تقم بهذه التضحية فقط لتتحرر من سلطة عائلتها المحافظة بل ايمانا بقدرات خطيبها ووفاء لاتفاق حصل

بينهما ذات يوم . ويقضى هذا الاتفاق بأن يواصل أحدهما الدراسة فى حين يقبل الآخر القيام بأى شغل يضمن لهما دخلا قارا الى أن تشاء الحياة ما هو أحسن .

وكما لم يسعفها الحظ بأن تحصل على نقلة للتدريس بالعاصمة لتقترب من حبيب القلب ، شاءت الظروف أيضا أن يرسب خطيبها فى المرحلة الاخيرة من استاذية علم الاجتماع سنوات وسنوات . ورغم ذلك واصلت بوفاء مجنون ومدمر ترسل الى خطيبها ما يلزمه من ضروريات العيش واكثر . ولم يمنعها هذا من أن تعنى عناية الحالمين بالشقة الصغيرة التى تسوغتها بصفاقس . ولو لا شعورها بأن مكوثها مؤقت فى هذه المدينة لما وسعت الشقة الاثاث الذى تعتزم شراءه . ولو لا قلة الامكانيات لما توقف خيالها ..

عندما جلس المسافر يحتسى الشربة السخنة ، جالت بخاطره كل هذه الافكار عن علاقة أخيه بهذه المعلمة « الحديثة » وبقدر السرعة التى اختزل بها خواطره هذه فعل مثله بالصحن الذى أمامه ليأتى بنفس السرعة اثر ذلك على صدر الدجاجة التى اعدتها بالمناسبة . وفيما هو يأكل تنزه فكره فيما وراء الاشياء ونظره على المعلمة من حين الى آخر . أما هى فكانت « تنظر » اليه بجسمها وبحركاتها دون أن تلقى بصرها عليه . وتواصلت هذه « المحاورة » الصامتة أكثر من ربع ساعة فتجاوزت بذلك الوقت الطبيعى للانتهاء من الاكل ولو تسنى لهذا المشهد أن يجسم على شاشة السينما لخطر ببال المتفرج أن الامر سيؤدى الى مواقعة جنسية حتمية ، ولكن الامر كان غير ذلك ..

فالمسافر لم يلبث أن قطع الاحداث فوقف بشكل ميكانيكى وتوجه نحو طاولة صغيرة . أشعل سيجارة وقال :

– « .. أريد أن أقول لك أمرا هاما .

لم تعبأ بحركته ولا بكلامه ولكنها سرعان ما توقفت عن الأكل عندما واصل قائلا :

– « .. أمرا يتعلق بأخى .. »

هم بالكلام ثم تراجع ، خطا خطوتين الى الامام ثم توقف والتفت اليها وأخذ نفسا طويلا . وبدأ كأنه أحد أبطال الافلام المصرية ، ورغم كرهها لهذه الافلام

فان أنفاسها ظلت محبوسة منتظرة بقية الكلام ...

وجاء الكلام بسرعة المتأكد مما يقول :

ـ لا .. فى الحقيقة ـ أخى تأخر عن المجىء معى لا لأنه لم ينجح فى الامتحانات . بل لان الشرطة قبضت عليه اثر مشاركته فى مظاهرة طلابية .. »

حاولت الكلام اثر هذه الطارئة فلقيت جهاز كلامها متعطلا .. وتحول الكلام عندها الى حركات ميكانيكية عصبية تخللت بوضوح عملية جمعها للاوانى المملوءة ببقايا الطعام .

لم يكن احساسها يحتوى على أى نوع من الشفقة أو الحيرة لسجن خطيبها بل امتلأ صدرها ببحر هائج من الحنق والغضب فانسحبت من حولها الاشياء الى العدم فلم تعد تراها ولا تعى ما هى فاعلة بها . ومع حركتها الميكانيكية فى غسل الصحون انطلقت من حنجرتها تمتمات كلها اتهام وعذل وتقريع . فعلت وكأن خطيبها يعتذر لها عن تعديه على أهم ما جاء فى اتفاقهما التاريخى بأن لا يهتم بالسياسة حتى ينهى دراسته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ « .. كيف عاوده الحنين الى السياسة المراهقة وقد بلغ من العمر ما لا يحتمل ذلك .. »

تلك هى جملة قالتها .. فوصلت اليه بعد أن تخلصت من قيود تمتمتها .. فانتابته لذة شبقية لا توصف . شعر أنه أصبح يمسك بزمام الأمور .. وأنه قد تخلص من أزمته الاصلية .. لقد جعل من اللاقضية قضية وها هو يحول حيرته « الحقيقية » الوهمية الى وعى كائن آخر فيهزه هذا حياتيا لا غبار عليه . وتماشى منتصرا كما لو كان عالما بيولوجيا جرب عقاقير من ابتكاره فكانت لها آثار توقعها .

اقترب من الستارة التى تقسم الغرفة الى حيزين ورفعها .. وتأمل .. فراشا وثيرا مرتبا بعناية كبيرة . ولكنه شعر بأن هذا الفراش لا معنى له . وليس

به ما يدل على أية واقعة جديرة بالتخيل . فالاثاث المحيط به أو « المزدان به » جاثم خارج الزمن ، لا يحمل ما يدل على فاعلية ما أو ضرورة معينة أو امكانية تحفز هذه الضرورة .

وما لبث أن خلص يده من الستارة ملتفتا وراءه ليرى خطيبة أخيه متكئة على باب المطبخ تنظر فى المطلـق .

4 ـ **الحكايـة الثالثـة :**

كثيرون هم ـ من سكان مدينة صفاقس ـ الذين فوجئوا بذلـك التحـول الغريب الذى طرأ صباح ذلك اليوم على محطة الحافلات بـ « باب الجبلى » . فلقد اختفت كل الحافلات ولم يعد هناك أثر واحد يدل على أنها كانت تقضى الليل هنا .

وانتصب وسط الساحة تمثال كبير يجسد شابا تلقى رصاصة تحت القلب فوضع يده اليمنى على الجرح وباليسرى رفع بعناد راية شامخة ، والتف حول التمثال جمع كبير من « الصفاقسية » أغلبهم بلباسهم التقليدى . منهـم من احتج ومنهم من وقف ضاحكا وهازئا وقليلون هم الذين أعجبـوا بالحـدث « الجلل » . وأخيرا أقبل أحد المسؤولين وأعلمهم أن المحطة قد نقلت مؤقتا ولمدة عشرة أيام الى منطقة « الزقـم » وستعود الى « باب الجبلى » اثر الانتهاء من تصوير شريط سينمائى أجنبى تطلب تلك الترميمات الخفيفة .

وفى حين بدأت الجموع الغفيرة تتفرق ، كـان المسافر ينزل مـع خطيبة شقيقه درجات « باب الغربى » التى تؤدى الى ساحة « باب الجبلى » .

نزل وهو يقول بلهجة الناصح العاقل :

ـ « .. عليك أن تتفهمى وضعه جيدا وأن تواصلى مؤازرته . فهو بحاجـة اليك اكثر من أى وقت مضى وخاصة اثر مبارحته للسجن .. عليك أن تجامليه حتى يمر من هذه النكسة النفسية الطارئة .. وأنا متأكد انه سيتجاوزها .. »

كانت غير مشغولة بكلامه بل صوبت عينيها نحو التمثال وسارت نحوه كما لو جذبت اليه بسر مغناطيسى ، أما هو فلم يتأثر بحدوث هذا التمثال واقتصر على النظر اليه نظرة باهتة ثم واصل قائلا :

ـ « ان مثله من ذوى الافكار بهم داء اللهفة الى رؤية مثلهم تتحقق بسرعة وهو خطأ كبيـر ..

هم كثيرون من هذه الشاكلة .. يستهلون حياتهم الجامعية باعتناق مثل وأفكار غايتها السعادة المطلقة يتحمسون لها ويحملون بواسطتها وزر العالم والتاريخ .. يثورون ويفورون .. وينطفؤون شيئا فشيئا . ثم يأتى جيل من بعدهم .. يفعل نفس الشىء . ولئن تبدلت السبـل والاقوال أحيانـا ، فان السيرورة هى نفسها والصيرورة هى ذاتها .. »

انتبه فوجد نفسه قد بلغ التمثال فيما أكملت هى تأملها لهذا الفن العجيب عن قرب وابتعدت شيئا ما لتجلس على احدى الدرجات المكونة لقاعدة التمثال.

نظر اليها ثم الى التمثال .. واقترب اكثر من « جذع » الكائن العجيب .. واتكأ .. وبعد أن نظر حواليه التفت اليها فلقيها ما زالت تلمح بعشق تفاصيل هذا الشاب الحامل للراية رغم اصابة قلبه .

وكان كل شىء من حولهم قد أصبح خاليا من كل الذين تجمهروا . وشعر أن الساحة قد خلت له هو .. وأن بامكانه أن يخطو الى الامام أكثر مما خطا . فتقدم نحوها وأردف :

« .. أنا لا أوافق أخى أفكاره . ولست من أنصار الشق المقابـل . ولكنى معجب بهم عندما يعملون ويتحركون . ولو أنى أدرك أن مآلهم هـو التراجـع الحتمـى .. »

وفجأة شخصت عيناه ونظر الى ما لا يجسد وقال :

ـ « .. لو شاهدته فى المظاهرة ! »

فسألتـه بسرعـة .

ـ « .. هل كنـت حاضرا ؟ »

أجاب دون تغييرفى نبرته ولا فى طريقة وقفته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ «.. نعم.. لقد كان يوما رائعا. كانت الجموع تنساب كالمياه عبر الصخور وتتلون من نهج الى آخر .. وتتعالى أناشيدها بكل النغمات وبكل المحتويات . وتتحول الشعارات من تضرع الى نداء والى استنكار ..

آه .. ما أحلاهـا .. !

أنا أعشق المظاهرات ولكنى لا أحب أن أكون فى صفوفها أحبها لأنها تؤدى بصدق فشل كل شىء .. ولأنها تعنى فشل ما هو قائم .. ولكنها تعنى أيضا فشل من يقوم بالمظاهرات .. وهو ما يطمئننى . فجمال الحياة هو أن تتواصل قائمة بتناقضها .. بصراعها حيث يعتقد كل شق ان النهاية ستكون لصالحه

ولكن الحياة تنتصر لنفسها بالاحتفاظ بسرها فى كل مرة .

كان أخى محمولا على الاكتاف يهتف . والجموع القريبة منه تجيـب تارة فتكرر ما يقول .. وتارة أخرى ترد بكلام آخر وتيسر لى أن ألمح العدم والعبث وجديتهما فى كل أمر .. »

وفجأة حول ناظريه الى نقطة أخرى تبدو محددة . وشرع فى التقهقـر الى الوراء جزعا .. واسترسل فى قوله .

ـ « .. وفى زمن معلوم .. أقبلوا عليهم من كـل مكان .. وفعلـوا فيهـم ما فعلوا . وتحولت الانهج والبنايات الى جبال متحركة تحمل فى أحشائها كل الاحتمالات . وزاغت العيون ثم تناثرت عبر كل المحيطات .. وتحولت أصوات الجموع الى نغمات فردية متعارضة ومتلاحقة .. وبعد ساعة .. وجدت نفسى وحيدا فى ركن من أركان أحد الانهج أحمل أخى بين يدى .. »

عندما قال هذه الجملة الاخيرة كان قد استنفد كل ما تسلح به من أنفاس قبل أن يروى هذه الواقعة ، ولكنها سرعان ما تلقفته بسؤال ملح لا ينتظر :

ـ « .. ماذا به ؟ .. هل جرح ؟ .. »

ودون أن ينظر إليها أجـاب :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ « .. لا .. بل مـات .. »

5 ـ **الحكايـة الرابعـة :**

عندما رفع المسافر جسمه من فوق خطيبة أخيه ، سارع إلى افـراغ كـأس مملوءة بالماء فى بطنه . وبالجهة الاخرى من السرير تحركت المعلمة منسحبة واتجهت نحو دورة المياه دون غاية محددة . أما هو فانه ما كاد يولع السيجارة حتى تسارعت وتلاحقت عدة أحاسيس بداخله ومختلف الافكار بذهنه .

وشعر بقرف وانزعاج واختناق نفسى .

ولم يكن قرفه ناتجا عن شعور بالذنب لأنه واقع خطيبة أخيه ، فهذا أمر يمكن تبريره اعتمادا على عدة مفاهيم دينية وتاريخية وثقافية وغيرها .. ثم إنه لم يسع الى ذلك كما انه لم يشعر بها مرة واحدة ترغب فى ذلك ... ولكن جزئيات الحياة شاءت فلم يمانع أحد منهما .

ولم يكن طبعا انزعاجه من علاقة محتملة قد يصعب عليه التخلص منها .

كما لم يكن اختناقه النفسى ناتجا عن أمر لا شعورى طفح فجأة اثـر هذه المواقعـة .

لقد كان الامر واضحا بالنسبة إليـه .

ولكنه يشعر بتورطه فى رواية صنعها هو بنفسه . فلقد نسج من الاحداث الكثير وسرد وقائع دقيقة وغيرها مرات عديدة وحطمها وصنع مـن بقاياها حكايات أخرى .. ونجح كل مرة فى الاقناع ، ولكنه فشـل فى اقناع نفسه فشلا ذريعا .. وها هو يجد نفسه مرة أخرى فى نفس وضعه الجامد الثابت عندما كان بالقطار .

وفجأة اطفأ السيجارة وقام يلبس ملابسه بسرعة المصمم على أمر خطير ، ولما انتهى من ملابسه تقدم نحو الستارة الفاصلة فحرك وسطها وأطـل : لمحهـا تمسح وجهها باجهاد كبير ثم تتجه نحو النافذة الكبيرة بعد أن تركت المنشفة على كرسى اعترض سبيلهـا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تأملها وهى تنظر الى ما بعد النافذة .. تأملها وكأنه يحاول سبر فكرها وحسها . فتراءى له حزن شفاف يعمر وجهها المنبطح تحت أشعة الشمس الصباحية القادمة كالبحر من النافذة .

خرج من تحت الستارة وسار نحوها قائلا :

ـ « .. إيه .. مالك حزينة ؟ »

لم تجب . ولم تتغير فى شىء .. بل ظلت فى حيزها النورانى لا تعبأ به . وبدت كأنها من عالم آخر .

وبعد لحظات تحركت مبتعدة عن النافذة ومرت بجانبه دون النظر اليه . عندها تقدم من النافذة ففتحها بعنف وخطا خطوتين ينظر هنا وهناك ..

وعبر الساحة الممتدة أمامه رأى مجموعة من الاطفال التابعين للكشافة يضع كل واحد منهم قناعا على وجهه . وقائدهم يحتج بصفارته تارة وتارة أخرى يلعنهم لانهم لم يحترموا قانون اللعبة التى علمهم اياها .. والاطفال غير عابئين به ...

تأمل المسافر هذا المشهد بتلذذ ثم لم يلبث أن استدار راجعا وكأنه تذكر شيئا ما . والتحق بها داخل الغرفة وامسك بها من كتفيها وأدارها اليه قائلا :

ـ « .. اذا كنت حزينة بسبب أخى .. فأنا لا أعتقد أنه يستحق ذلك .. »

رفعت عينيها كأنها استعادت الحياة من جديد وقالت مستنكرة .

ـ « .. ماذا تقول ؟ .. »

وواصل :

ـ « .. نعم لا يستحق .. أو أتعقدين أنه بالفعل زعيم ثورى مات فى مظاهرة .. يا لك من غبية حمقاء .. الى الجحيم أنت وما يجول بفكرك .. اعلمى اذن أنه قتل فى ظروف أخرى غير تلك التى تتصورينها .. نعم .. لقد مات أشنع ميتة .. ولاسباب حقيرة مثله .. لقد قتله قواد من وسطاء الخناء والفاحشة لانه اعتدى على احدى نسائه .. »

لم تتمالك نفسها ازاء هذا الكلام فانطلقت يدها بلا وعى لتصفعه بشدة . وتوجهت نحو باب الخروج ففتحته بعنف وقالت :

« .. اخـرج !.. »

سحب يده من خده المصفوع ورفع رأسه ناظرا تجاهها بتحد . وفهمت من سلوكه ما فهمت فتحولت بتصميم نحو جهاز الهاتف . وما ان رفعت السماعة حتى سارع إليها مهرولا ومتوسلا ..

ـ لا .. أرجوك .. لا تعلمى الشرطة ، سأروى لك الحكاية كمـا هى مـن بدايتها الى نهايتها .. »

ابتلع ريقه بصعوبة وواصل جاهـدا .

ـ « .. فى الحقيقة .. كل الحكايات التى حكيتها لك حتى الآن صحيحة .. فلقد استمعت اليها أنا الآخر كما رويتها ـ جماعة النقابة قالوا إنه مسجون.. وزملاؤه الطلبة أخبرونى بأنه مات بالمظاهرة .. أما صاحب الحانة فأعلمنى بأن فوادا اغتاله .. وروى آخرون أنه ارتحل الى الخارج .. وكنت كل مرة أحكى فيها إحدى الحكايات أعتقد أنها هى الحكاية الحقيقية .. »

كان يحكى وهو مطاطىء الرأس كالمهزوم أبدا ... وشعر أنه يلخص حكاية الدهر بلا بدايته ولا نهايته . وعندما رفع رأسه اكتشف أنها تركت السماعة تنفلت شيئا فشيئا من يدها فيما انطلقت من حلقها أصوات هى مزيـج من الضحك والبكاء وهى عصارة خليط بين الشهيق وعويل التلذذ الجنسى ..

.. وغادر الشقة كالهارب مـن المعركة والموهـم بالعودة إليها بالمـدد .. ولا مـدد ..

6 ـ حكايـة الحكايـة :

.. وفى القطار العائد به الى تونس العاصمة انتابه شىء يشبه الاقتناع بأنه أصبح أمام خيارين لا ثالث لهما :

إما أن يكتب كل ما يحدث له فى شكل قصص أدبية وينشرهـا لتتأطـر ضمن التبرير الانسانى ..

وإما أن ينسحب نهائيا من الحياة ..

علـي العبيـدي

(كتبت فى أزمنة مختلفة وأماكـن متنوعة ... لا تحتمل الحصر ...)

تقديم مجموعة : فارس الظلام

يوسف عبد العاطى (I)

لعلى ـ فى بداية هذا الحديث ـ لا أفاجئكم ان قلت اننى سأعرض عن تقديم صاحب المجموعة القصصية التى أنوى تقديمها اليوم وهى مجموعة : «فارس الظلام» التى صدرت عن : منشورات قصص ، بتونس سنة 1985 ، لان صاحبها ، وهو يوسف عبد العاطى ، ابن هذه البلدة تعرفونه أكثر مما أعرفه ، نشأ بينكم وترعرع حتى غدا كاتبا قصاصا تسكنه بلدته وتنطوى عليها شغاف قلبه ، فتجدها فى ثنايا ما يكتب حاضرة دوما ، قصد ذلك أحيانا به ، وكنى عنه وأشار اليه أحيانا أخرى ، وأذاعتها رغبته فى اخفائها مرات فى هذه المجموعة القصصية .

تقع هذه المجموعة فى 121 صفحة من الحجم المتوسط ، وتحتوى على ثلاث عشرة أقصوصة ، تتوزع كتابتها فى الزمن كالتالى :

- 1 : 1980 .
- 4 : 1981 .
- 5 : 1982 .
- 1 : 1983 .
- 2 : 1985 .

وتتوزع كتابة هذه الاقاصيص ـ فى المكان ـ على تونس (4 أقاصيص يصرح الكاتب فى آخرها أنه كتبها بتونس) وعلى غير تونس دون تصريح فى 9 أقاصيص .

(I) ألقيت هذه الكلمة فى قصيبة المديونى بمناسبة المهرجان الثقافى الذى أقيم يوم 19 جويلية 86 .

والرابط بين هذه الاقاصيص مجموعة من الافكار والهواجس للقرية منها نصيب ، وللوطن منها نصيب وللبعد الحضارى منها نصيب أيضا • ولكن الهاجس الذى نجده لا ينقطع فى هذه المجموعة هو هاجس التأصل والتعلق بالجذور وهاجس التردى الحضارى وموقفنا من الآخر وموقف الآخر منا فتغدو هذه المجموعة ـ بذلك ـ متصلة الاجزاء وان بدت فى الظاهر متنافرة لا يربط بين عناصرها رابط فتدفع الباحث الى التساؤل عن صلة هذه المجموعة القصصية ببيئة الكاتب الاولى ـ أعنى : قصيبة المديونى ـ التى انطلق منها لبلورة رؤيته الفكرية والفنية ، وهى بيئة اخذ يوسف عبد العاطى منها الكثير من المكونات والجزئيات دون أن ينسبها اليها صراحة ، حتى لا تظل أقاصيصه مطبوعة بطابع محلى بحت ، وحتى يتمكن من تجاوز المحلية ـ دون اعدامها ـ الى تناول هموم حضارية تكون بيئته الاولى مطية للتعرض اليها ، باستثناء أقصوصة واحدة ، بعنوان : طفل الوطن ، كتبها صاحبنا بتاريخ 82/11/24 وهى أقصوصة استوحى موضوعها مما جد بلبنان من أحداث صيف 1982 ، وأهم تلك الاحداث اجتياح الجيش الاسرائيلى لبنان ودخوله بيروت •

واذا سعينا الى الايجاز ، قلنا : ان على الباحث أن يتقصى مظاهر الواقعية فى أقاصيص يوسف عبد العاطى ، وهى مظاهر تحيله على البيئة المحلية ، كما عليه (أى الباحث) ان يتقصى مظاهر الرمز ، أو ما يختفى وراء ظاهر الاقاصيص ، ليمسك بذلك الخيط الرابط بين البعد المحلى والبعد الوطنى أو البعد الانسانى المطلق أحيانا •

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

I ـ الطابع المحلى فى مجموعة «فارس الظلام» :

تطالع قارىء مجموعة «فارس الظلام» اشارات عديدة ، بل كثيرة الى البحر من جهة والى الارض من جهة ثانية والى التكامل بينهما من جهة ثالثة ولكن الخصائص التى يضفيها الكاتب على البحر وعلى الارض تدل دلالة واضحة ـ على أنه ليس البحر مطلقا ولا الارض دون تحديد ، فالبحر فى هذه المجموعة مكان يقصده أهل «القرية» طلبا للرزق : «كان أبى يستيقظ قبل صياح الديك فيحمل معه ما خف من الطعام ثم يتجه نحو البحر أين (كذا) يفكك رباط زورقه الصغير ويتوغل فى البحر ، وهو يمنى النفس فى كل يوم بصيد

وفير» (ص65/66) ولكن الخروج الى البحر لا يخلو من المخاطر ، فقد يخرج الصياد اليه يملؤه الامل ولا يعود منه الا جثة : «شعرت بحماس حبيبتى يزداد حين وضع بعض البحارة جثة صاحب الزورق على شاطىء البحر ...» (ص 71) .

فهذه الاشارات وغيرها كثير فى المجموعة تجعل القارىء يجزم بما يشبه اليقين ـ بأن الكاتب استقاها من بيئته الاولى فأضفت على أقاصيصه طابعا محليا واضحا ، رغم أن صاحبنا قد سعى دوما الى تغليف هذه الاشارات بضرب من الرمز ، سنعود الى الحديث عنه .

أما الارض ، فى هذه المجموعة ، فهى «الارض الطيبة» ، أرض «القرية الطيبة التى لم ترفض يوما مخلوقا أراد العيش فيها» وهى أرض تشد من سكنها اليها شدا ، اذ هى تبسط الرزق فيشتد تعلق المرء بها ، ولا يبرحها أبدا ، غرسها الزيتون ، بل لا نكاد نعثر فى المجموعة على اشارات الى غيره من الشجر ، اذا استثنينا النخلة ، وقد جاء الحديث عن النخلة فى سياق رمزى غير السياق الذى ورد فيه الحديث عن الزيتون .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وللزيتون فى هذه المجموعة شأن ، لانه واهب الدم والحياة لاهل المدينة الصغيرة «لم يكن للناس فى تلك المدينة الصغيرة من أملاك الا شجر الزيتون، لذلك كنت دائما أدعو لهم بصيانته ، لانه الوحيد الذى يساعد على زرع الورود .. وكسر القيود» (ص 58)

والزيتون ، الى جانب ذلك ، ثمر كريم من شجر كريم ، لا يمكن أن يبلغ مداه ثمر آخر ولا شجر آخر ، جعله الكاتب ـ فى مجموعته ـ عنصر حياة ، ومصدر نور ، وأساس بناء المستقبل المشرق ، بل انه يصبح رمزا لمعنى الوجود: «كان يطلب ممن يعمل عنده أن يلم عرق عمله فى آنية ويسقى بها زيتونته التى كانت كل ما تبقى له من أملاكه ، فرفض بعد ذلك بيعها وقرر سقيها بعرقه . وحين سألوه عن سبب ذلك قال لهم : « بالزيتون نغرى كوكب الشمس ... فيكون الشروق .. فبأى الثمرات من بعده تحيون ...» (ص 41) .

غير أننا قد نتجنى على الكاتب ان نظرنا الى الامور هذه النظرة التجزيئية، لان عبد العاطى قد سعى دوما ، بل حرص شديد الحرص على بيان التكامل بين الارض والبحر ،، فهما العنصران الذان يكتمل بهما العالم : « نظرت الى البحر ، ورمال الارض تشدنى اليها ، فعانقت كل الدنيا » ! ص 80 ؟ ، فلا وجود للبحر خارج الارض ، الى حد أن الكاتب يجعله ممتدا « من الارض الى الارض» ، ولا قيمة للارض ان لم تتصل بالبحر ، ولعل أقصوصة : «لا أدرى انه البحر » .. أحسن مثال على هذا التناغم بين الارض والبحر ، فمن كان على الارض دعاه البحر اليه ، ومن كان فى البحر دعته الارض ، اليها ولا تستقيم الحياة الا بما ينتجه البحر وتنتجه الارض : «أصبحنا نأكل خبزا وزيتا وزيتونا وحوتا (68) أو : «بحلقت فى أرجاء البحر فرأيت زورقا جميلا يلوح فى الافق ، انها الارض تناديكم يا زوارق فارفعوا أشرعتكم واسقوها بعرق أصحابكم» (ص 70) ٠

فهل نشك ، بعد مطالعتنا لهذه المجموعة القصصية ٠ أن صاحبها ينتمى الى مدينة ساحلية صغيرة ، خاصة انه قد اشار فى بعض حديثه الى ان تلك المدينة تحتل قمة جبل صغير ؟ ويكفينا أن نتتبع الاشارات الكثيرة ـ ولكنها من طرف خفى ـ حتى نتأكد من أن الكاتب قد سعى الى اتخاذ بيئته المحلية اطارا مكانيا لاحداث أقاصيصه ومجالا لها ٠

أما شخوص الاقاصيص ، فهم أيضا منجذرون فى محيطهم ، تجمع بينهم مجموعة من الخصائص ٠ ولعل أولى تلك الخصائص ما يلقاه النـاس مـن شظف العيش وصعوبته ، فالفقر من ثوابت الحياة لديهم ، «اجتهد أبى أكثر فى عمله ، لكن البحر لم يستجب لحماسه فعرفت الفاقة» ولكن هذا الفقر كان حافزا لاهل القرية حتى يسعوا ويكدوا فى طلب العيش يصيبونه حينا ويخطئونه أحيانا ، فلا تخر عزائمهم ويعاودون بل ان البعض منهـم يغـادر القرية ويهاجر : «هجرت البلدة بعد أن مل ساعدى الكسل ، ذهبت الى ما وراء البحر بحثا عن العمل» (ص 91) ٠٠ أو مثل : «بالامس فقط كان عماد يلعب أمامى ٠ واليوم سافر الى ما وراء البحر ، فتزوج واشترى سيارة ثم نسينا» (ص 52) ٠ غير أن هذه الهجرة الى «ما وراء البحر» ليست أمرا يسيرا ولا ايجابيا دوما ، فلئن كانت تحل مشكل البطالة ، فانها تخلق مشـاكـل نفسية انسانية عميقة ، على صلة متينة بالموقف الحضارى وعلى صلة بمعاملة

أهل تلك البلاد للعامل المهاجر وعلى صلة بالاغتراب ولعل أحسن ما يصور هذه القضية ، قول الكاتب على لسان أحد شخوصه (الشجرة ص 91) : «ذهبت الى ما وراء البحر بحثا عن العمل ، هناك حصلت على احتقار كبير لنا جميعا ، لكننى وقعت فى حب امرأة جميلة فاتنة قبلت الزواج منى شرط أن نعيش فى بلادها ، وقبلت ، لان الزواج منها يعنى ابرام عقد العمل هناك والحصول على منح اضافية (...) تقدمت بنا السنون رزقت فيها بطفلين جميلين رضعا الحقد علينا لانهما لم يعرفا عنا الا التخلف ..»

وقد لا تكتمل هذه اللوحة ان نحن لم نتعرض للوجه الآخر من الهجرة وهو السياحة ، وما تثيره من قضايا بدخولها القرية الوادعة .

وقد خصص يوسف عبد العاطى أقصوصة : «غالب النوم» لتناول هذه القضية بكثير من التلميح والاشارة ، دون أن يخفى موقفه المعارض لهذه الظاهرة ، التى تقلب حياة القرية وتوازن معيشة أهلها ، فتدخلهم فى دوامة قيم جديدة وتجعلهم يسعون الى تلبية حاجات ماكان لهم عهد بتلبيتها ، ولعل موقف الكاتب واضح من خلال تصرف بطل الاقصوصة : يوم علم بوصول أول دفعة من الاجانب غضب كثيرا كما لم نره يغضب من قبل ، وأعلن رفضه لقبولهم (ص 21) ويقابل هذا الموقف موقف بعض شخوص الاقصوصة: «قال أحدهم : سنربح منهم ، سندخل العملة الصعبة ، سنمتص عملتهم .. وقال آخر : سنشتهر أكثر .. القضية عملية اشهار لبلادنا دون مقابل .. وقال آخر ... وقال آخر ... (ص 22) .

فكأننا بصاحبنا يقف معترضا على الهجرة لما تثيره من مشاكل وعلى السياحة لما تجره من وبال ، وهو فى كلا الموقفين يصدر عن رؤية مكتملة المعالم فى مجموعته ، أساسها حب الارض والتشبث بها حد الهوس والدفاع عنها والايمان بطيبة جوهرها ، والالحاح على أن «كل رافض للتجذر يصبح خبيثا» (ص 39) ، وسنعود الى هذه القضية فى آخر حديثنا .

أما أهل القرية ، فانهم «طيبون» ، ولا يتوانى الكاتب فى التذكير بذلك عند كل فرصة تسنح له ، وايمانه بطيبتهم من ايمانه بطيبة الارض التى أنجبتهم ، فهم يعيشون فى سعادة تغمرهم برغم شظف العيش ، تنتظم

حياتهم على أساس من الانسجام وعلى أساس من القيم «الاصيلة» ، فلا يشكو التذبذب منهم الا من حاد عن تلك القيم ، ولكن هذا التذبذب ـ ان وجد ـ عارض زائل لا يدوم ، لان «الطبع يغلب التطبع» ، فتعود الامور الى نصابها ، وينتصر التأصل والتجذر على الانبتات ، فاذا أهم قيمة تسود حياة الناس فى هذه البلدة التكافل الاجتماعى ، واذا بأهل القرية يهبون لنجدة كل من كان فى ضيق أو من أصابته مصيبة ، واذا بالواحد من اهل البلدة التى يتردد ذكرها فى هذه المجموعة لا يحس بغربة ولا باغتراب ، فهذه «القرية الطيبة لم ترفضه وما مخلوقا أراد العيش فيها» ويبين هذا النص ، من ص 38/39 من أقصوصة الارض ما أنا بصدده : كان يمضى كامل اليوم الاول أمام باب عائلة العروس لا يترك أحدا يدخل المنزل قبل أن يتسلم منه قطعة من المال ويمضى اليوم الثانى أمام منزل العريس يقوم بنفس العمل ...

قلت : انه ابتزاز ....

قالت : انه التفاف حول النفس .. وليس ذلك ابتزازا .. فالنفس كل وليس فى الفرد حياة ، والاعانة زمن البناء تواصل .. فالرجل لم يكن يحتفظ بما كان يجمعه بل كان يقدمه الى العروسين بعد انتهاء مراسم الزواج ..

قلت : من هنا انطلقت فكرة المساولات زمن الافراح .

قالت : ربما هذا الافتراض هو الاقرب الى تفسير ذلك : ..

وللمعتقدات الشعبية والخرافات نصيب من حياة أهل القرية ، اذ بها يكتمل وجه الحياة الثانى ، واليها يعزى جانب من التوازن الذى يعرفه أهلها ، وسأقتصر هنا على ذكر بعض الامثلة :

ص 52 : نظرت الى مفترق الطرق فاذا خبزة وسط أربع ثنايا ، انحنيت اليها فاذا هى مطلية بالزيت ، ربما وضعها مريض حتى يشفى من مرض الحسد ، والعين الشامتة .

ص 53 : ماذا جنيت حتى تذبحى ليحصل قاتلك على كنز مدفون تحت التراب (المعنى ظاهر : اشارة الى الخرافات : الكنوز التى تكون وقفا على دم طفل ـ باطن : البنت : الوطن ، الكنز : الثروة الباطنية ، الذبح : الغزو الاستعمارى) .

ص 60 : ذهبت الى أغلب الاطباء بدون جدوى حتى نصحنى بعض أصحابى بالمجىء اليك (امرأة تكلم شيخا ذا كرامات أو يعتقد أنه ولي صالح) ·· ولا يتسع المقام لتتبع كل الاشارات من هذا النوع ·

وقد نظلم الكاتب ونبخسه حقه اذ نحن وضعناه فى مجال قريته الضيق ، لان القرية ـ فى حديث صاحبنا ـ لم تكن سوى مطية لتناول مجال أوسع بالحديث وهو الوطن ، والحق ان يوسف عبد العاطى مسكون بحب الوطن ، مهووس به ، فهوهو ، أوهما واحد ، ولا يخفى كاتبنا ذلك بل لعله يبرزه أكثر مما يحتاج القارىء ذلك ، والوطن فى حديثه وطن فى حدود ضيقة وهو جزء ـ فى نفس الوقت ـ من وطن أرحب ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر أقاصيصه : «لنبحث معا» ، «ولا ادرى انه البحر» ·· و«فارس الظلام» ، وهى أقاصيص توسطت المجموعة ، فسبقت بخمس واتبعت بخمس أخر وفى ذلك ما فيه من الدلالة على ان الوطن هو محور الاقاصيص والقطب الذى تدور عليه رحاها ، وعلى أن القرية · بأهلها وتقاليدها ومعتقداتها جزء لا يتجزأ من هذا الوطن ، وان التجذر فى القرية يعنى التجذر فى الوطن ، وان حب القرية وأهلها يعنى حب الوطن · وقد تحدث الكاتب عن كل ذلك حديث المتحمس لاصالته ، المدافع عنها ، وحديث من لا يرى لوجوده معنى بدون حب الوطن والتعلق به ، بل ان حديثه ليخرج احيانا كثيرة عن الكلام العادى ليدخل سياق الحديث الوجدانى ، فتنقلب الاقصوصة مناجاة ويغدو الحديث قليل التمسك بأهداب الواقعية ، قريب الصلة بالادب الرمزى ، فاذا بالوطن هو الام ، واذا بالوطن هو الجد ، واذا بالوطن هو الحبيبة واذا بالوطن شغل الكاتب الشاغل ، يحيا بداخله وينمو فى مطاوى نفسه ، واذا بالوطن يختزل فى صورة الزيتون والنخل واذا بالقارىء يجد نفسه مجبرا على أن يعيد قراءة المجموعة على أساس من النظر جديد ، يحس بنفسه فيه مدفوعا الى تتبع عناصر الرمز ودلالاته وأبعاده ، فيتفطن الى ان عناصر الرمز هذه تنتمى الى ثلاثة أبعاد زمنية تتكامل بها رؤية الكاتب الفكرية ، وهى : الماضى والحاضر والمستقبل ·

أ ـ **الماضى** : تمثل الجدة هذا الجانب احسن تمثيل ، فهى تروى 4 أقاصيص من المجموعة (I3) فهى الذاكرة الجماعية ، وهى عنصر التأصل والتجذر ، وهى الداعية الى ذلك عند مخاطبتها حفيدها (رمز الحاضر والمستقبل أيضا) وهى الحافظة للتراث ، تراث الاجداد ، تدافع عن قيمه

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتبين ما فيه من نواح ايجابية وتسعى الى بيان دوره فى انتاج حياة كانت منسجمة ومحيطها ، فتقوم بدور المعلم الذى يريد تلقين تلامذته مجموعة من القيم تنتظم على أساسها حياتهم المستقبلة ، ولعل هذا الحوار الذى يدور بينها وبين حفيدها يغنينا عن اطالة التعليق : (ص 110)

قالت باندفاع : والى ماذا وصلتم حتى نغار منكم ؟

قلت بلهجة المتفاخر : هذه ديارنا مضاءة بالانوار الكهربائية . وهذه أسفارنا على متن الطائرة ، وهذه سهراتنا مع التلفزة ، وهذه ... وهذه...

قالت وهى تضحك باستهزاء : كل هذا لم تصنعوه أنتم يا ولدى . أما نحن فقد مارسنا حياتنا بما أنتجه كد أيدينا .

ب ـ **الحاضر** : يمثل الراوى المتحدث بضمير «أنا» فى أغلب الاقاصيص هذا الحاضر الذى يقوم همزة وصل بين ماض مشرق ومستقبل مأمول ، (سنتحدث عن خصائصه بعد حين) ، ولكن هذا الحاضر يتمثل للقارىء أيضا فى مختلف عناصر الثبات التى تضرب بجذورها فى الماضى وتتواصل حياتها عبر الحاضر الى المستقبل ، ولعل الزيتونة والنخلة احسن ما يمثل هذا التواصل ، وهو لعمرى تواصل يسعى الكاتب الى التأكيد عليه حتى يبين تلك العلاقة الجدلية بين الماضى والحاضر والمستقبل .

ولكن هذا الحاضر كثيرا ما يبدو مهزوزا يتجاذبه الخوف والرجاء ، ويدفعه الشوق والتوق ، وتقوم فى وجهه المصاعب والمتاعب ، ويسعى الراوى فى كل ذلك الى اقناع قارئه بالثبات والمثابرة والصمود حتى يتحقق له ما يصبو اليه ، وان كان ذلك عسيرا تتخلله وقفات أو عثرات أحيانا ، ويكفينا أن نقرأ ـ على سبيل الذكر لا الحصر قوله : فى صفحتى 44 و45 .

ج ـ **المستقبل** : هو الظرف الذى بدونه لا تكتمل الحياة ، وهو مجال تحقيق الامل وتجسيد الرجاء والقضاء على الخوف والتخلص من اليأس . ولكنه ظرف صعب التحقيق اذا أريد تحقيقه فى اطار الفعل الخلاق . وصاحبنا مدرك لذلك، شاعر به ، فاستعمل للتعبير عنه مجموعة من الرموز لا تجد صعوبة فى فك رمزها والخروج بها من طور اللغز الى طور الكشف ، فقد تردد فى أقاصيصه ذكر الورد والاطفال والنحل والعسل ، مع استبدال بعض هذه العناصر فيما بينها ، فتجد الاطفال مكان الورد أو مكان النحل أو مكان العسل والعكس ، وكل هذه الاشارات تحملنا على الاعتقاد بأن هذه العناصر ترد فى هذه

المجموعة لتكتمل بها رؤية الكاتب ، يدرك القارىء بعد مطالعة هذه المجموعة والنظر فيها أن اهتزاز الحاضر يعوضه ايمان مطلق بالمستقبل وثقة فى تحقيقه ، ولكنه ايمان دون استكانة ولا انتظار سلبى ، بل هو ايمان بالمستقبل على أساس العمل الدؤوب المهيىء لهذا المستقبل ، كعمل النحلة الذى لا ينقطع فى البناء والعطاء ، ومن ثم يمكن توظيف النحلة فى المجموعة وهى تنتقل بين الورد لتصنع عسلا ، ودلالة هذه الرموز لا تحتاج الى تعليق فى رأينا ، فالتكامل واضح بين الورد والنحل والاطفال والعسل : فالطفل وردة ، والطفل ايمان بمستقبل مشرق فمن الورد ينبثق العسل عبر النحل ، والعسل تفاؤل بما للعمل من الحلاوة ، والعسل نتاج العمل الدؤوب ، والعسل هو المستقبل المنتظر ، ولعل آخر جملة فى المجموعة تلخص ما قلنا :

«عليك بغرس الورد يا ولدى حتى يطعمك النحل العسل» ص 121 .

خاتمة :

كان بودى أن أتناول الجانب الفنى فى هذه الاقاصيص بالدراسة ولكن المقام يضيق عن ذلك ، غير اننى ابدى بعض الملاحظات السريعة التى أراها لازمة فى هذه العجالة :

لا شك عندى فى أن يوسف عبد العاطى من الكتاب الشبان الذين ينتظر منهم الكثير ، فهو ينطلق من رؤية فكرية واضحة جدا لو كانت الرؤية الفنية فى مثل وضوحها ، وأعنى ان صاحبنا يكتب نصوصا تشبه الاقصوصة وليست منها وتشبه التأملات وليست منها وتشبه الشعر المنثور وليست منه. ولكنها على كل حال من النصوص التى نجد لها صلة بالادب الرمزى ، وان كانت لا تخلو من واقعية تبطن ثناياها ، ولعل هذا المزج بين الواقعية والرمزية هو الذى جعل صاحبنا يكتب نصوصا تخرج عن حد الاقصوصة بالمفهوم التقليدى ، فكأنما دفعه الرمز الى تبنى شكل فني جديد نرجو أن تتضح معالمه فى كتاباته القادمة .

بقى أن أشير ـ وليسمح لى الكاتب بذلك ـ الى لغة المجموعة : فهى لغة غير متجانسة من حيث السجل الذى تنتمى اليه ، وغير متجانسة كذلك من حيث الصفاء ، اذ هى لغة تشوبها أحيانا هنات تفسد على القارىء متعته .

محمد قوبعة

تونس 15 جويلية 86

حيـاة بـن الشيـــخ :

خـــريـف ... وأقـحـــوان ...

أضواء تتلالأ وموسيقى صاخبة . موائد متراصة وأناس كثيرون . الكؤوس ملآى والشفاه باسمة . زوجان أمام كل مائدة أو مجموعة . ضحكات منطلقة ووجوه مشرقة . الا هى وحيدة فى ركن قصى من القاعة ، أمـام مائدة قرب النافذة . قادها الجرسون صاحب العينين المندهشتين بعد أن ألقى بالسؤال التقليدى الذى من كثرة ما سمعته أصبح كالورم الخبيث يعشش بصدرها ولا أمل فى شفائه أبدا .. وحيدة ؟ او مأت برأسها بنعم ، انغلق فمها ولم يستطع التفوه بالأحرف القليلة التى تلاحقها ككلاب الحراسة كلما نسيـت وجودها نبحت لارغامها على التذكر ، وكلما حاولت قبولها بصبر ولا مبـالاة أعـادت النباح ولا تكف عن النباح إلا بعد أن تغرس أنيابها المدببة فيها فتدمى الجسم والروح معـا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأكل على المائدة وكأس الويسكى الذى طلبته لا عن رغبة فى الشرب إنما لكى تتجنب نظرة الجرسون الفضولى المزهو بنفسه أكثر من اللائق وهو يسأل فى شبه تهكم خفى : ماء صافيا ام ؟ لطمته بكـأس ويسكى . ابتعد ونظـرة التساؤل لا تفارقـه .

نظراتها تثقب زجاج النافذة لتنطلق نحو قمة الجبل العالى المزدحم بالاشجار الليل خارج القاعة هادىء بديع ينام بين احضان قربص فى دعـة واطمئنـان تحيط به الخضرة من كل جانب ، غير عابىء بوحدتها ولا بالاعوام الخمسين المتراكمة فوق كتفيهـا .

الموسيقى الصاخبة تسكت فجأة . تقف مطربـة ملطخة الوجـه بالألوان ، بفستان لامع شعر طويل مستعار ، تغنى . كلمات حـب مبتذلة بـلا ذوق أو

معنى . كثر الناعقون باسم الطرب دون أن نسمع طربا . تدس برأسها بين الصحون تتشاغل بالأكل حتى لا تسمع .

الشيخوخة تترصدها منذ أمد لكنها لا تبدو جلية عليها . فهى تشعر بها أكثر مما تمارسها . ما زال وجهها يحتفظ بمسحة جمال لم تستطع الأيام طمسه لكنها طبعته بخاتم حزين . وما زال جسمها صغيرا متناسقا لم يبارحه بياضه ولا نعومة جلده . ليست قصيرة ولا طويلة وقوامها المتوسط ونحافتها أبعدا عنها أشباح الشيخوخة وتصديا لها . إنما الحزن باق يواكب مواسم القحط والوحدة لا يتزحزح .

انقضت سنة وها هى سنة أخرى واقفة أمام عتبة الزمن ستقتحم الليل عنوة بعد ساعات وقبلها كم مرت من أيام وأعوام ولا شيء تغير إلا البرد الذى بدأ ينخر القلب والجسد . أسبوع مع المياه المعدنية . تلذذ الجسم بالدفء . ولانت عظامه لكن القلب انغلق على أشجانه فلم تغمره شمس ولا خضرة .

ذاك الفتى الطائش ماهر كان يقول قبل أن يصطدم بجدار الواقع ويشعر بمرارة الأسر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« العمر لا يقاس بالسنين انما بالاحساس واللحظات السعيدة التى نعيشها اجمعى كم فرحة عشتها ، تعرفى كم عمرك » .

أين هى الفرحة واللحظات السعيدة ؟ لو نقبت عليها فى حقل الخمسين القاحل لما وجدت إلا لحظات قليلة جدا لا تزيد على عمر جنين مات فى أيامه الاولى .

اختفت المرأة الناعقة واختفى فستانها الأحمر اللامع . عادت الموسيقى الصاخبة . البعض يرقص والآخرون يضحكون ويثرثرون والليل يتثاقل يئن ولا يتحرك . فجأة تلتقى العينان . كهل أم شيخ ؟ المهم رجل وحيد دخل لتوه ليحتل مائدة قريبة منها . ملامحه ليست غريبة . الوجه الاسمر المستطيل . العينان السوداوان والشفاه النحيلة . هو بدوره أخذ يتفحصها بذهول وحيرة ألقى التحية برأسه وابتسم . اقتحمت الشعيرات الفضية عزلتها وغاصت فى

شلالات النور المنبعث منها . تقدم من مائدتها وبسمته تزداد اتساعا . مدت يدها تصافحه ببعض الارتباك :

ـ الأستاذة نعيمة حمدى أليس كذلك . أهلا

ـ الأستاذ مصطفى حاتم . صدفة غريبة

يجلس والنظرة الحانية تسابق الابتسامة :

ـ وسعيدة أيضا

استيقظ الماضى وبدأت الجثة تتحرك محاولة زحزحة أكوام التراب المتراكم عليها . ضحكت عينا الجرسون وتلاشت علامات التعجب وهو يضع الطلبات فوق المائدة . يقول وهو يقطع قطعة خبز :

ـ زمن مضى بخيره وشره مذ افترقنا . ترى كم سنة ؟ خمسة عشرة سنة أم أكثر ؟

ـ بعد النكسة بأشهر أو أكثر .

ـ تركتك جميلة ناضجة وما زلت على عهدك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بضحكة مريرة تقول وعيناها تنبشان الماضى فى وجهه الذى احتفظ بنضارته :

ـ برغم الخمسين ومرض الروماتيزم والصداع المزمن بالرأس .

ـ برغم الخمسين ومرض الروماتيزم والصداع المزمن بالرأس .

تترك لى فرصة التنفس هذا مع المعدة ومشاكل الوحدة والعزلة الاجبارية .

تغتصب ضحكة وشىء كالمغص يتسرب إلى جسمها ، يذكرها بما فات :

ـ مازلت كذلك الجبل يانعا بديع الخضرة

بصوت حان يقول :

ـ هذا ما يجب أن يكون . لن تنتهى الحياة إلا بنزولنا إلى القبر . وما دمنا خارجه فالجسم حى والأمل حى . انقشعت سحب الكآبة وعادت نسائم الربيع

بعد شتاء قاس رهيب . قال إنه جاء للتداوى من أجل الكلى . وقالت : إنها جاءت املا فى الشفاء عن طريق المياه المعدنية . افترقا فى ظروف حزينة وجمعتهما قربص بمياهها الصافية وخضرتها المشرقة . ترك الجامعة بعد أن شعر بقتامة الجو وتذبذب الآراء وفضل الهجرة الى الخليج . من يومها لم تره .

تلتقط حبة زيتون قبل أن ترتشف قطرة من كأس الويسكى . يشعل سيجارة بعد أن يقدم لها واحدة . لليلة لم تعد وحيدة . جاء بالأمس بعد الظهر لكنها لم تلمحه إلا الساعة . يبدو هادئا مطمئنا كأن المستقبل لا يؤرقه :

ـ ماتت زوجتى منذ أعوام إثر نوبة قلبية . تزوجت ابنتى واستقر ابنى فى باريس رافضا العودة . بقيت وحيدا مع المرض والشيخوخة . ابنى بعيد وابنتى لا وقت لها لعجوز مثلى ، لها زوجها وأطفالها . أحيانا تتذكر وجودى فتزورنى لدقائق واحيانا اخرى تمر الاشهر ولا اراها . هكذا الابناء كل يسير فى طريقه ونحن يجب ان نبتعد فى الوقت المناسب حتى لا نكون حجر عثرة . وأنت ماذا فعل بك الزمن ؟ أين الزوج والأطفال ؟

قالت إحدى الصديقات مداعبة وهى ترمقها بشفقة

« مجرمة انت . تقتلين اطفالك بالقائهم فى المراحيض كل شهر »

ضحكت يومها ولم ترد . لكنها قضت الليلة باكية الى الصباح .

تقول متنهدة :

ـ وحيدة مع الشيخوخة بلا زوج ولا أطفال وصداعى لا يفارقنى

يشهق وهو يلقى بالكأس من يده .

ـ كيف ؟ كنت اعتقد

ـ نعم ، قدمت استقالتى قبل أن أسمع قرار الطرد من المجلس التأديبى . تزوجت المجنون ماهر . وكانت غلطة العمر . طلبت الطلاق بعد سنة . سنة من المحنة والمعاناة .

ـ قلت لك إنه طالب طائش يصغرك لا خير فيه . سيستغل مركزك إن لم يستغل نقودك .

ـ وكان العشق يعمى عينى فلم أر الهاوية إلا بعد أن وقعت فيها .

ـ من أجله كانت الاستقالة والتمرد والخروج مع الطلبة المتظاهرين .

ـ كاد يجتاحنى التيار من أجل رأى حر وحب طائش مجنون .

ـ وقد أحبك الاستاذ عدنان ورفضت حبه كما أحبك آخرون . ابتعدت عن الكهول الناضجين .

ـ لاقع فى المصيدة مع جرذ مريض بجنون الشغب والتحريض . ودفعت الثمن من حياتى ومستقبلى .

ضحكا معا . انفتحت فجأة شهيتها للأكل . وبدأت تلتهم ما بالصحن . لم تعد الذكرى تؤلمها . التأم الجرح . وعاد القلب الى أداء وظيفته ولو أن الحسرة لم تبارحه . لكنها حسرة أسف وندم أكثر مما هى حسرة ضياع حب وفقدان حبيب . كان الزمن أحسن مرهم دهنت به جروحها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عاشت منطوية ، منزوية بين الكتب والكلية والعودة باكرا الى البيت . لم تعرف قبل ماهر ولم تعشق بعده .

مر الشباب ولم يتوقف وهى مشغولة بالدرس والمطالعة وتقاليد العائلة المحافظة .

كان الاندفاع والحماس الثائر . وكانت الهدوء والحياء والرصانة . كان الطيش والانطلاق والتحدى ، وكانت الاستقامة والعقل والتريث . وجدت فيه طفولة لم تعشها وأحلام شباب تناحرت بصدرها زمنا وكبلتها أخيرا بحبال المسؤولية .

أول لقاء لهما حين حملته فى سيارتها وكان متعبا ، ممزق الثياب ، نازف الأنف بعد أن تشاجر مع أحد أعوان الأمن وهرب منه بأعجوبة .

« شباب الامة العربية مكانه فى الخنادق لا فى المقاهى فى انتظار آخر الأنباء المزيفـة » .

« لا يحارب الشعب الحر المتطور إلا شعب حر متطور »

« ومتى نكون أحرارا ؟ متى تكف الهراوات عن مطاردتنا ؟ »

« مؤامرة خسيسة طبخت فى الخفاء وكان عـلى مصر مواجهتها ، وخيانـة محلية لم تكتشفها فى الابان »

« انى اكاد أجن . أين يكمن عجزنا ؟ السلبيـة ام التهاون والتسيـب أم الانحراف السياسى وتمزق القرار ؟ »

« لابد من اعادة النظر فى جميع حساباتنا »

« بل لابد من السلاح وخروج الشباب العربى إلى الحرب . ما أخذ عنوة لا يعود إلا عنوة . لا كرامة بلا حرب »

« يتساءلون الارض والخراب أم الامن والسلام ؟ »

« لا يتكلم عن السلام الا العملاء والشيوخ الذين أصابهم الوهن »

صمتت لتتأمل وجهها فى مرآة السيارة . بكم سنة تكبره ؟ نظرت إلى وجهه النحيل وعينيه العسليتين . وأحست بغصة . أهى من ضمن الشيوخ الذين أصابهم الوهن ؟ نزل من السيارة ومازال يلعن ويشتم . اقسمت ألا تراه ثانية لكن ما وقع بعد ذلك خرج عن دائرة الوعى .

يد سمراء طرية اللحم تربت على يدها :

ـ لا تفكرى كثيرا ما فات راح وليذهب الى الأبد . وما دام فى الحياة رمق فللأمل بقيـة .

ـ رغم وحشة الخريف وأوراق الشجر المتساقطة .

ـ ورغم عواصف الشتاء وأمطاره وصقيعه . يمر الشتاء ويأتى الربيع باشراقته وشموسه هذا ما أقوله لنفسى حتى لا تغتالنى العزلة .

ـ بيت بارد صيفا شتاء وجسم طمر تحت أكوام الثلوج

عيناه تشتعلان وهو يحتسى الكأس الثالثة :

ـ هل أقول لك سرا : كنت معجبا بك من يوم أن كنا معا فى الكلية . لكن ظروفى منعتنى من الحركة . أما الآن

ـ نركض معا خلف المياه المعدنية بأجسام منهكة وأرواح ممزقة .

ـ الاجسام ستحييها الحمامات الساخنة ، والأرواح فقليل من الود يعيد إليها الحياة والشباب .

وماهر بعد شهر العسل بدأ يتغير . فتر الحب وانطفأت شعلة الحماس ، حتى أحلام الحرب واسترجاع الأرض السليبة خبت نارها . والأموال تتدفق بين يديه وبعد أن انتقل من حيه البائس الى الفيلا الجديدة التى امسى ساكنها .

« الشعب لا يحكم ولا يملك اتخاذ القرار . قطيع يتحرك حسب أهواء القوى العظمى وما دامت المقاومة هباء ، والرفض هباء فلنعش آمنين فى ظل العز والثروة إن وجدنا فرصتنا » .

« والكرامة ، وأحلام الوحدة العربية والحرب وتقرير المصير ؟ »

« ما دام لابد للعالم أن يسير وفق المصالح الامريكية ولابد أن يخضع لمتطلبات الأمن الاسرائيلى فلم الصراخ والمعاناة . شعب عربى بلا مستقبل هذا هو نحن . باع السماسرة الأوطان والشعوب وقبض العملاء الثمن »

« والمقاومة . فلتكن مقاومة فكرية إن لم تكن بالسلاح »

« أيد فارغة وعقول مشوشة وها أنا أصبحت تابع الساسة وكلبك الأمين يا سيدتى » .

« لست فى حاجة إلى كلب بل إلى انسان لم يفقد نفسه »

« إنسان بلا كرامة . إنسان فقد إنسانيته . التهم كلمته وباع حريته . هذا هو أنا . إشتريتنى بنقودك ثم ماذا ؟

فتى جميل المحيا ، كثير الحماس نحبه . اما عائلته فهى مرفوضة . عائلة الريف وأعمال الحقل »

« ها أنت تفتح أبواب النزاع فهل تقدر على غلقها ؟ »

« مهما كان لست الخاسرة . إن لم استطع أن أقدم لك شيئا . فقد نهبت شبابى . أصدقائى ينادوننى بزوج العجوز وانت تحاسبيننى عن دنانير أصرفها » .

« لا ، ولا كلمة اخرى . لا . لا »

« نعم يقولون زوج العجوز يشرب اللبن والعسل صباحا ، ويأكل ربع خروف فى الغداء وبالليل يبات على دجاجة محمرة وصحن كافيار مع زجاجة الشمبانيا . وقبل أن ينام تدهن له جسمه بماء الورد كى يسترد نشاطه ، هكذا يداعبنى اصدقائى . لم اعد اعرف كيف اواجههم ولا ماذا اقول »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« كفى ، لا تقل شيئا . لا تقل »

فرحت يوم اكتشفت انه على علاقة مع احدى الموظفات الصغيرات . طلبت الطلاق ووافق فرحا بعد أن ساعدته بألف دينار . انزاح العبء لكن مرارة الفشل كالحنظل فى الحلق باقية الى الأبد .

مصطفى وهو يضرب على المائدة :

ـ ممنوع التفكير ، ممنوع الشرود ، ممنوع الكآبة وأنا هنا .

ـ هذا ما قاله ماهر ونحن فى شهر العسل : ممنوع التفكير فى الماضى . ممنوع الخضوع لاية قوة غاشمة . ممنوع التهاون فى طلب حق مشروع . الحياة جميلة فلندافع عنها بكل قوانا . بعد ايام جاءت فترة النكوص .

ـ نعيمة ، لا شيء اجمل من النسيان الم تجربيه ؟

ـ نسيت لكن النسيان لم ينس

ـ الاستقرار دوما مع الكهول صدقيني . ويقولون شباب المستقبل . أى مستقبل مع الطيش والتذبذب والتمزق خطب وشغب ومظاهرات وماذا بعد ذلك ؟ لو قدمت لأحدهم بندقية وطلبت منه الذهاب الى إحدى الجبهات لاختفى فى قاع داره كالحريم خوفا من الموت .

ـ بعد فوات الاوان تأكدت من زيف المزاعم وتلوث الأفكار . هل تعلم لقد اتهمنى يوما بالعمالة . صرخ فى وجهى أمام أحد أصدقائه : أنت عميلة مأجورة سألت لمن ولحساب من أعمل ؟ قال بوقاحة . لا أدرى . بعد كل ما جرى يتهمنى . فقدت منصبى وابتعدت عن عائلتى و ...

وهذه الغصة المرافقة لدقات القلب الصاخبة ، عقدة بلا حل ، تحاول ابتلاعها مع حبات الدمع المتناثرة فوق الخدين بلا جدوى . يضغط على يدها هاتفا :

ـ لا تتركى حسرة الماضى تغتال فرحة الحاضر . ما دامت الحياة فى استمرار دائم وما دام يجب أن نعيش ، فلنختطف نصيبا من الفرحة رغما يقدم لها الكأس مع سيجارة أخرى . يضحك . تضحك معه والأصوات تحاصر بيتها الخالى « امرأة وحيدة بلا بعل ، ولا أطفال كيف تعيش حياتها ؟ »

أخوها يقول « لطخت سمعتك بزواج فاشل فمن المعتوه الذى سيتقدم بعد ذلك ؟ »

وزوجته النحيفة المدللة « اشترت غلاما ابتزا موالها ثم باعها عند أول فرصة وستشترى غيره ليسلبها ما بقى ويتركها عند أول فرصة أيضا »

إن لم يرحم النسيان بالمجىء فأين الجنون ؟ أين ؟

ـ الزواج نوعان : زواج ينتهى بغنيمة وزواج ينتهى بهزيمة . وأنت اخترت الهزيمة راضية فيا للنكبة . هذا ما قالته أمى قبل أن تموت بأيام . حقا انهزمت لانى دخلت الحرب بالأوهام لا بالحقائق .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كأنه فقد عشرة أعوام من عمره فجأة . يقهقه مرحا ناسيا هجرة الابن وبعد الابنة وأيام العزلة الباردة . يتناول من صحن الجنبرى قطعة متسائلا :

ـ البعد عن العرب غنية أم ..

تبقى الكلمات معلقة فى فمه مع قطع الجنبرى . تقول وهى تطرد خيال ماهر بعنـف :

ـ هل تعود مصر الى الصف العربى ؟

ـ عائدة لا محالة . عروبة بدون مصر كجسم سقيم بلا روح .

ـ لكن فى النهاية مع الحرب نحن أم مع السلام ؟

قهقهة من بعيد . تصفيق وهرج . جسد أسمر يتلوى عـلى أنغام شرقية . نظراتها تنهل من الوجه الهادىء وهو يقول بثقة متناهية :

ـ العرب يحبذون السلام حين ترغمهم الظروف على قبول السلام ويدعون إلى الحرب حين تدفعهم المصالح الى طلب ذلك ، حتى مواجهة المشاكـل ، هى مواجهة القصد منها إبراء الذمة واتقاء غضب الرأى العام .

يرفع الكأس بيد صلبة لا تبدو عليها آثار الشيخوخة :

ـ فلنشرب قبل أن تتجاهل النشوة وجودنا . اسمعى : لقد أقسمت الآن إنى أن اكون وحيدا بعد الساعة . سنة جديدة وحياة جديدة . ما رأيك .

عادت سيناء بعد كامب ديفيد فلم تجاهلت المباحثات مشكلة طابا ؟

منتصف الليل . رحلت سنة وهلت أخرى . مزامير تنعـق وقبعات مـن الورق الملون فوق الرؤوس . يختطف قبعة من أحد أعوان النزل ، يضعها فوق رأسها ضاحكا . تضحك مبتهجة والهتاف يرج أركان القاعة مع تبادل التهانى . يطبع قبلة فوق خدها باسما :

ـ فلنتذكر الطفولة ولو لليلة واحدة

تعيد له القبلة هامسـة :

ـ فلاعش الطفولة ولو لليلة واحـدة

ـ يجب أن تعود للحياة إشراقتها القديمة .

ـ برغم أوجاع الكلى والروماتيزم والصداع المزمن .

ـ تسرب العمر من بين أيدينا مرة فلم ننتبه فحذارى من فقدانه ثانية .

موسيقى هادئة تعقب الضجة . يجذبها من خصرها قاصدا ساحة الرقص . تضع رأسها فوق صدره والقلق الذى طاردها خمس عشرة سنة يتدحرج هاربا خارج الحلبة . خفتت الأنوار واشتبكت آلهمسات . قال بصوت وقـور قار

ـ سنتزوج ونبدأ الحياة من جديد اليس كذلك ؟ لا تقولى شيئـا . دعى الحياة تتكلم فهى تعرف دوما ما تريد ..

صمتت وبخار المياه الساخنة يغمر جسمها بالدفء والخضرة الفاتنة عادت تداعب ناظريها . ابتسمت وفوق شفة الجبل كانت اقحوانة تبتسم أيضا ..

حيـاة بن الشيـخ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الـــرمـــاد

مجمـوعـة قصـص لمحمـد العـربى

أطلبـوهـا مـن الاكشـاك

السعر : دينـاران فقط

تاليف : بيلغ كاراسو (**)
تعريب : أحمـد ممـو

مسـافر مـن العصـر الـوسيط (*)

فى بداية الاشياء ، فى وسطها وفى نهاية كل شىء هناك صورة ذلك الرجل بذلك الحيوان الذى يحمله فى حزامه . الكل يتكثف ، ينتظـم ، تنبعث فيـه الحركة ثم يتداخل حول هذه الصورة ٠

هى صورة مسافر من العصر الوسيط ، حاج من العصر الوسيط ملتف فى عباءته بقدميه الكبيرتين الحافيتين الغبراوين وبعينين تغيبـان تحت قبعـة فقدت لونها مع فقدان شكلها واتخذت شكل جمجمة الرجل ٠ تقلصت قـامـة الرجل من تأثير البرد الى أن تحولت الى مجرد استدارة وحزام ٠ كان يبدو واضحا أن الرجل قد قرر عدم قضاء الليل فى الخلاء وسط الظلام الذى سيحل بعد حين محل هذا الضياء الذى يعشى بصره ٠ كان الرجل يسعى فى اتجاه الخان البعيد الماثل هناك أسفل الجبل فى صورة جمل بارك ٠ لـو أمكنـه الوصول الى هناك ولو بعد حلول الظلام فسيكون ممنونا وحتى وان لم يمكن الا من ركن تحت الحائط يأوى اليه ٠

(*) نقلت هذه القصة عن الاصل الفرنسى المنشور بملحق جريدة «لونـد» LE MONDE 40 nouvelles II; Suplement aux dossiers et document du monde juin 1983 .

(**) المؤلف : بيلغ كاراسو BILGE KARASU ولد باسطنبول سنة 1930 وكان يدرس علم المنطق بجامعة انقرة . اشتهـر بترجماته لآثار سيمون دى بوفوار ووليلم فولكنر وكذلك د٠ هـ٠لورانس ٠ له مؤلفات قصصية وروائية وحكايات لم تترجم الى العربية ٠
هذه القصة «مسافر من العصر الوسيط» نقلت عن مجموعته القصصية التى تحمل عنوان «حديقة القطط الميتة» ٠

سيكون هذا المسافر لم يصل باب الخان بعد عند الغسق . كان ذلك الغبار الذى تبعته حركة قدميه يصل الى مستوى حزامه . كان الرجل المسافر الوحيد على هذه الطريق التى كانت تغبر حواليه . من حين لآخر يبدو الرجل كما لو كان ينتفض مرتعشا.ولكنه الوحيد الذى يعلم ان الانتفاض والارتعاش لم يكن مصدرهما البرد الذى شمل السباسب مع قدوم الليل ولكنها بطنه المتلوية التى لم يدخلها ولو فتات الخبز منذ فجر ذلك اليوم . كان الوحيد الذى يعرف المخالب والانياب التى تمزق عباءته كاشطة جلده ومتجاوزة ذلك الى لحمه . انه الوحيد الذى يعرف لماذا هذا الحفر وهذا التمزيق المزعجين .

لم يحدث أن تفطن أحد الى أنه يحمل بين ثنايا حزامه ذلك الحيوان ذى الفرو الوردى نصف اليربوع ونصف النمس والذى يقضم بأسنانه ويجرح بأظافره . عندما كان المسافر شابا وكان يقضى الليل فى تلك المغارة الواقعة فى أعلى الجبل تسلل ذلك الحيوان تحت حزامه ولم يغادره منذ ذلك الحين. وخلال كل هذه السنوات حاول التخلص منه بضربه طويلا ولكنه لم يفلح . حاول الهرب منه ولكنه لم يفلح . ومع ذلك لم يحاول فى يوم ما التخلص منه بالقتل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من الصعب أن يقال : إنه كان يقاسمه عيشه اذ إن الحيوان لا يتمتع الا بثلث خبزه وهو لا يضايقه كثيرا الا عندما يلح عليه الجوع كما يحدث ذلك الآن . تعود المسافر على وجود الحيوان معه الى الحد الذى أصبح فيه لا يتعجب من امتداد حياته كل هذه السنوات . هذا المساء هو فى حاجة ـ اضافة الى المأوى ـ الى كسرة من الخبز مهما كان الثمن . منذ أيام وهو يجتاز السباسب. نفذ الزاد ولم يبق فى جرابه حتى الفتات .

أما أولئك الذين كانوا يستعدون للنوم داخل الخان فهم رجال من عصر آخر . مجموعة صاخبة من المسافرين العابثين . ينغلقون وسط علب حديدية ذات أرجل قصيرة تسابق بها الريح لكى يصلوا الى هذا الخان القفر وسط الفلاة حيث لا مركوب الا الجمال . اكتسحوا باحة الخان بعرباتهم ثم استولوا على المكان ليتهيؤوا للنوم . يبدو ان التعب قد هد قواهم فما إن أتوا على زادهم حتى استلقوا نياما ..

وصل المسافر الى باب الخان بعد وقت طويل من حلول الظلام واغلاق الابواب . فى عصره تغلق الابواب فتبقى كذلك لا تفتح الا عند الفجر . أما النزلاء الآخرون فهم من عصر لا يفهمون فيه كيف أن الابواب تغلق فلا يتمكن أى كان من الدخول او من الخروج .

كان المسافر أمام الباب من الخارج حيث البرد . كل ما لاحظه قبل أن يدركه الليل يتمثل فى أن الخان الذى بدا له فى الصباح مستندا الى الجبل هو فى الواقع بعيد عنه يحيط به الخلاء من كل جهة وهذا يعنى انه لاملاذ من البرد ، فالريح ساكنة تماما والبرد ينفذ الى العظام ، يحيط بالخان من كل جهة ، يجثم على المكان ويثقل على الارض .

ان يتمشى أمام هذه الابواب المغلقة أو ان يقف لذلك سيان . حرثت مخالب الحيوان جلده ولم يبق لها الا القليل كى تنفذ الى احشائه . من الضرورى أن يوفر له الطعام مهما كان الثمن اذ لا الضرب ولا الطرد ينفعان مع هذا الحيوان. كان قد حاول ذلك مرارا من قبل ولكنه اقتنع اخيرا انه لا فائدة ترجى من وراء كل ذلك .

أخيرا قرر المسافر أن يلجأ الى احدى ركائز الاقواس التى تقوم على جانبى الباب . كان كل نزلاء الخان نائمين على الفرش الخشبية التى هى أقرب ما تكون الى المناضد . كانوا نائمين على الالواح مباشرة متدثرين بأغطية جلبوها من داخل عرباتهم الحديدية . بعض تلك الاغطية يبدو كالزغب الناعم . أحد الاسرة كان خاليا ولكن الغطاء كان مكورا وملقى عند أحد أطرافه . لا شك أن صاحب الفراش قد استعصى عليه النوم فنهض يتمشى قليلا وسط الظلمة.. تمشى فى البداية بين النائمين .ثم خرج الى باحة الخان حيث الحارس كان شابا لم يتسلل البياض الى شعره كما أن ظهره لم يتقوس بل كان منتصبا ولكن ان يصاب بالارق فذلك يعنى انه ليس فى مقتبل العمر تماما .

ذلك هو الشخص الذى تفطن عند احمرار الشفق الى ذلك الغبار الذى ينبعث من حركة قدمى المسافر الوحيد على الطريق . أشعر صاحب الخان بوجود قادم على الطريق . رجاه ان يؤخر موعد اغلاق الابواب قليلا ولكن صاحب الخان كان يعيش نفس عصر المسافر . وهذا يعنى بالنسبة اليه حتمية اغلاق الابواب

قبل مغيب الشمس وراء الافق · كانت تلك هى الاوامر التى يستوجب تطبيقها ولا مجال للنقاش ·

سعى الرجل الى البحث عن طريقة يدخل بها المسافر الذى لا بد أن يكون الآن أمام الباب لذلك كان يراقب الحراس · لابد من العثور على ذلك التشقق الذى سينفتح بعد سنوات أو قرون وعندها يمكن ادخال المسافر الى الخان · المكان الوحيد فى البناء الذى كان يبدو متداعيا فى ذلك الحين هو الوجه الداخلى لاحدى الركائز التى تسند البرج الرئيسى القائم وسط الساحة . تسلل الرجل بين الاقواس وجال فى جميع الاتجاهات ملتصقا بالجدران كى لا يتفطن الحراس لوجوده · وفى النهاية وبعد ان التصق طويلا بالجدران العتيدة كجدران القلاع عثر الرجل على بغيته · كانت الارض قد انخسفت قليلا عند التقاء الحائطين الجانبيين للساحة وللبناء الرئيسى مما أحدث خروج حجر من موقعه عند أصل البناء . ولكن كى يتحول ذلك الى تصدع فى البناء لا بد من مرور قرون عليه .

هذا الرجل الذى ما ان اجتاز مع رفاقه باب الخان الجاثم وسط السهل بين الجبال حتى ترك نفسه يغيب فى عصر آخر هو عصر المكان وعصر المسافر الذى ينتظر الآن أمام الباب كان مثل المسافر أيضا يرتعش من البرد.ولكن... فجأة ... تسمر الرجل فى مكانه اذ أن صدعا بقامة الانسان قد انفتح فى الجدار كى يدلف منه ذلك المسافر بعباءته مغمغما بصوت يعلوه الغبار ·· أشياء مبهمة ··

حاول الرجل أن يفهم ما كان يتمتم به المسافر كما لو كان يفك رموز نص قديم · اتجه المسافر فى صمت الى باب المبيت وتبعه الرجل جريا ملاحقا كلماته : « ... كانت الجدران متماسكة عالية ولكنى فتشت طويلا حتى عثرت على هذا الشق · لم يكن موجودا عندما مررت من هنا فى المرة الاولى ·· يبدو انه حدث بعد ذلك ··» · يبدو أن اكتشاف الشق قد جعل المسافر يتجه بالحمد الى رب السماء · عندما تمكن الرجل من اللحاق بالمسافر كان هذا الاخير ينظر حواليه كمن يبحث عن شىء ما · لا بد انه جائع ، اسرع الرجل فى اتجاه فراشه · ادخل يده فى حقيبته · ثم عاد مادا يده بكسرة خبز مع اللحم والجبن · لم يرفع المسافر يده الى فمه بل قربها من حزامه حيث ظهر

خيشوم بين قائمتين صغيرتين من بين ثنايا الثياب · لم يكن الجزء الخلفى من جسد الحيوان بارزا · ولكن قطعة الخبز اختفت تدريجيا بين المخالب والخيشوم · نظر الرجل مندهشا الى المسافر · كان هذا الاخير صامتا شاخصا بنظره الى الحيوان وهو يأكل · يبدو أن الحيوان قد اكتفى اذ غاب كليا تحت الحزام · سقطت قطعة صغيرة من الخبز على الارض فانحنى المسافر ليلتقطها . نفض عنها التراب ثم ألقى بها فى فمه .. قدم الرجل قطعة أخرى من الخبز للمسافر فأخذها دون أن يتفوه بأية كلمة ثم جلس على المقعد الحجرى القريب من الحائط وشرع فى الاكل بتوءدة وتركيز . بيد أن المسافر كان قد فقد أضراسه منذ زمان .

كان شخير النائمين يتصاعد على موجات تعلو وتخفت · قد تكون الريح تهب خارج الخان بنفس النسق · كان المسافر يمضغ والرجل الآخر يرنو اليه · تبين الرجل أن ضوء القمر قد خفت · دخل تحت أقواس البناء ثم دلف الى مكان النوم منتهيا الى فراشه . أخذ فانوسا من حقيبته وعاد قرب المسافر بخطوات ثابتة موجها الضوء أمامه · شرع فى رسم المسافر وهو يأكل خبزه على ضوء الفانوس الاصفر · كان يرسمه بيده مشرعة فى الفراغ، بيديه ، بأصابعه فى الفراغ كان يرسمه محدقا فيه النظر · كما تشكلت الصورة أكثر تحول المسافر تدريجيا الى مجرد تسطح وراء الخطوط المرسومة· يبدو أن الرجل قد اقتنع بانتهاء الرسم فوضع الفانوس الذى كان قائما بين ركبتيه على الارض · أمسك الرجل بالمسافر الذى تسطح تماما ثم طرحه أرضا كما لو كان سيضعه وسط الاطار · وسط الضوء المنبعث من الفانوس· كان الرجل يتساءل عن المكان الذى سيضع فيه امضاءه · أخرج ازميلا فى طول الذراع من جيبه · اسنده الى كتف المسافر وشرع فى نقش امضائه .

هنا حدث شىء لم يكن الرجل يتوقعه أبدا . لم يكن قد انتهى بعد من وضع امضائه اذ فتح المسافر فمه الخالى من الاسنانو دون أن ينهض أو يتحرك قيد أنملة هاجمه السعال متواصلا عنيفا · رفع الرجل ازميله بسرعة · واصل المسافر سعاله ثم تحول السعال الى قىء وانتشر الخبز الذى مضغه منذ حين فى جميع الاتجاهات على وجهه وعلى الارض · بعد ذلك قذف المسافر من فمه أجزاء متجمدة سوداء من الدم ثم قذف رئتيه قطعا سوداء دامية ·

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جرى الرجل هاربا بكل ما يملك من قوة دون أن ينسى أخذ فانوسة لكى يرتمى فى فراشه ساحبا الغطاء . فوق رأسه وعلى وجهه . عندما بدا أن روعه قد سكن أمكنه أن يصيغ السمع فى اتجاه الباحة . كان السعال قد توقف أما الشهقات فقد اصبحت متباعدة ثم سكنت أخيرا ... خيل اليه بعد قليل أن أقداما تقترب . هاجمه خوف صبيانى طالما دفنه فى أعماقه : «... ماذا لو أن صاحب الخان اكتشف امضائى هناك ؟؟ ... هو حتما سيوجه التهمة لى ...» ابتعدت الخطوات تدريجيا .. يبدو أنها دورية الحراسة . وشعر الرجل بالارتياح . كان كل شىء فى الخارج هادئا . ان ما حدث يفوق حد التصور . كان يسيطر على الرجل شعور بالحلم .

ولكن ... وفجأة ... انغرست أشياء حادة فى ساق الرجل وشرعت فى تسلق خاصرته . لم يكن فى حاجة الى التثبت كى يفهم ما كان يقع له . صرخ بكل ما يملك من قوة . حاول بكل جهده أن يخنق الحيوان . أسرع كل من أفاق من نومه فى اتجاهه . جاء صاحب الخان جريا وكذلك دورية الحراسة . ولكن لم يتمكنوا من ابعاد الحيوان المتعلق بورك الرجل رغم كل ما بذلوه من جهد . كان الدم ينزف من خلال ثوب الرجل . هب الرجل واقفا يتبع الآخرين الى خارج المشى المسقوف . لم يمكنه أن يرى شيئا على المقعد الحجرى أو على الارض . كان ضوء المشاعل والقناديل كافيا . لم يتمكن الآخرون من تخليص جسد الرجل من الحيوان الا بعد أن شدوا حبلا الى عنقه وجذبوه بكل قواهم . ها الحيوان الآن يتدلى فى طرف الحبل معلقا من رقبته . عندما أدركوا الساحة أدار الرجل الماسك الحبل الحيوان عدة مرات فوق رأسه ثم طوح به فى الهواء كما تلقى حجارة المقلاع . اجتاز الحيوان الجدار وغاب وراءه . طلب صاحب الخان من الجميع العودة الى مضاجعهم .

لما كان الصباح واصل رفقاء الرجل طريقهم دون أن يرافقهم . ألحوا عليه ولكنهم لم يتمكنوا من اقناعه . قال : انه يستحيل عليه من الآن فصاعدا أن يتجاوز باب الخان . كان رفاقه قد اعتزموا التوجه الى مدينة كبيرة تقع على مقربة من هناك بعد التعرف على بقية المنطقة . واعدوه على الالتقاء هناك بعد خمسة أيام . انصرفوا بعد ان تم الاتفاق على ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بقى الرجل بالخان أربعة أيام بلياليها وفى صباح اليوم الخامس ركب عربته الحديدية ثم ودع الجميع واجتاز باب الخان · كان يفكر انه سيصل الى المدينة حيث ينتظره أصدقاؤه مع نهاية الضحى · ما ان اجتاز باب الخان وأدرك المنعرج حيث يلتقى فيه ذلك المسلك بالطريق الرئيسية حتى أحس بشىء ما ينقذف من وراء صخرة لكى يستقر كالصاعقة على ركبتيه · وسريعا غاب الحيوان داخل جيبه دون ان يتسبب له فى أى اذى · واصل الرجل طريقه فى اتجاه المدينة كى يصلها عند منتصف النهار · كانت تسيطر عليه فكرة أن تلك المخالب التى تقبع داخل جيبه قد تتحرك فى أى لحظة لتمزق احشاءه ولكن شيئا من ذلك لم يحدث · لم يكن يبدو على جيب قميصه الصيفى أنه يحوى أكثر من منديل ملفوف ·

لم يتفطن احد من اصدقائه عند اللقاء الى وجود الحيوان فى جيبه · كان الرجل مصمما على فعل ما لم يتجرأ المسافر على القيام به . كان قد قرر : ما ان يحس بتلك المخالب تخدشه حتى يأخذ الحيوان من جيبه ويخنقه على مرأى من أصدقائه أولئك الذين لا موه لانه نغص عليهم نومهم فى تلك الليلة، أولئك الاصدقاء الذين لا يفوتون فرصة للسخرية منه لمجرد أنه قطع عليهم أحلامهم وهم يتهامسون الآن بأنه رفض مغادرة الخان معهم لانه قد تعرض لصدمة نفسية ... أما اذا حاول الحيوان الهرب فهو سيمزقه بأول آلة حادة يعثر عليها أو يفلق له هامته على أول حجر يصادفه ·

كان ينتظر لكن الحيوان بقى هادئا · وفى كل مرة يدخل فيها يده الى جيبه خفية عن الآخرين كان يحس بحرارة وجود الحيوان وأنفاسه · كان ينتظر · ثم فهم فى نهاية اليوم أنه ليس فى حاجة الى انتظار عدوان الحيوان للاقدام على التخلص منه بالخنق او الذبح او تهشيم رأسه · من الخبل ان يتركه هكذا فى جيبه كما لو كان ينوى اسكانه هناك · كان الرجل قد تصور أن المسافر حمل الحيوان فى ثيابه طوال حياته ولكنه اكتشف انه لا يعرف أى شىء عن ذلك كما أنه لا يعرف لماذا كان يتنقل به من مكان الى آخر · وها هو الآن يتصرف كما لو كانت نيته هى تلك ·

حدث ذلك اثناء الاكل · صادف ان كان امامه سكين كبير · ادخل الرجل يده فى جيبه واخرج الحيوان دون ادنى صعوبة · مدده على الطاولة واخذ

السكين عازما على ذبحه لكن اصدقاءه هاجموه مستنكرين فعلته تلك · كانوا يفكرون فى وضعه فى مستشفى للامراض العقلية · لا بد ان الرجل قد فقد عقله ! ألم يكن من الانسب ان يطعم هذا الحيوان المسكين عوض التفكير فى ذبحه دون سبب خاصة وهو يحمله طوال الوقت فى جيبه ؟ ·· أمسكوه من ذراعية ثم اقتادوه بعيدا عن ذلك المكان وأجبروه على الذهاب الى فراشه · كان الوقت ليلا عندما توصل الحيوان الذى أفلت اثناء الحادثة الى التعرف على فراش الرجل · مزق الحيوان احشاء الرجل ثم قرضها بأنيابه وقطعها اربا · ولما جاء الصباح وجاء اصدقاؤه لايقاظه تفطنوا الى جثته الملطخة بالدماء وأمكنهم أن يتبعوا آثار أقدام الحيوان الملطخة بالدم التى تنتهى حتى وسط المدرج لكى تنقطع بعد ذلك ·

دفنوا صاحبهم هناك وكانت بهجتهم قد تلاشت فقرروا الرجوع الى بلادهم. ركبوا عرباتهم الحديدية وانطلقوا ·

بعد ساعات من انطلاقهم عندما كانوا جادين فى السير تراءى لهم رجل يمشى وسط الطريق فى خيال ذلك المسافر الحاج من العصر الوسيط · كان يحمل نفس عباءته · كان المسافر مجدا فى السير بخطى حثيثة عندما تراءت له سحابة الغبار التى كانت تقترب فى اتجاهه · لم يجد الرجل الوقت الكافى كى يحيد قليلا عل طريقها . بقى يتابع بعد ذلك بنظراته تلك المخلوقات التى مرت فى الاتجاه المعاكس لسيره بسرعة البرق · بقى طويلا يهز رأسه ثم فرك عينيه وعندما نظر فى اتجاههم من جديد لم يتبين أى شىء على الطريق · لم يكن هناك أكثر من سحابة تتبدد فى الافق · لم يكن المسافر ليسمح لنفسه باضافة ولو دقيقة والا فهو لن يصل الخان قبل موعد اغلاق أبوابه · انطلق من جديد بخطى حثيثة ثم ادخل يده فى ثنايا حزامه · ومرة أخرى أحس ظهر الحيوان دافئا وشعره ناعما وبدا له ذلك دليلا على حقيقة الاشياء ·

بيلغ كاراسو

نافلة ذهب

الـرجل الـذى يمشـى القهقـرى

كانت الشمس محشورة فى أكثر من بقعة . كانت تربض على الكـراسى الممزقة الزوايا ، على البلور الوسخ وعلى شعر المسافرين وتحوى نقط الغبار المتراقصة وسط الضوء .

اتخذ مكانا فى زاوية مشمسة · وكان للمعـان جـواربها الصقيلـة وهى جالسة أمامه واضعة الساق على الساق الاثر الذى شوش أفكاره وبالتـالى شوش شعر رأسه وسط الضوء · لم ينظر فى الكتاب الذى بين يديه ، وقد أخذ القطار يتزحزح رويدا رويدا ، فتلهى بالنظر الى مياه البحر المسجونة واسعة ينسى فيها هذا البحر المسجون وسط ضفتين من الاسمنت ،وينسى من يديها البيضاوين الرابضتين وسط الضوء · أراد أن يجـذبها لسفـرة واسعة ينسى فيها هذا البحر المسجون وسط ضفتين من الاسمنت ، وينسى هذا القطار المكبل بالسلاسل الحديدية تشنشن فوق السكة ، ويتفرس فى النوارس المنزلقة فى الضوء ·

نظر الى جواربها الشفافة فتأمل العروق الزرقاء تجرى مع عضلاتها وثنايا الساق فتخيل أن سيصبح كتلة من العروق الزرقاء تجرى تجرى · ترى ما اسمها ؟ لا شك أن لها اسما من الاسماء المتداولة ، بعضها جميـل وبعضها غير جميل · ما اسمها ؟

لماذا تبحث عن ضبط الناس باسمائهم ، رغم أن الاسماء تلصق بهـم وهـم لا يعلمون ، ثم يتقمصونها ويلبسونها الى الابد ، فأحيانا تشرق فى الهاتف عندما يكلمها مثلا ، آلو سوسن ؟ أو آلو فاتن أو آلو ميادة ؟ وأحيانا تبلى كالثوب القديم عندما تمرض سوسن أو فاتن أو ميادة ، أو عندما يدركها كبر السن فتصبح خالتى سوسن ، وخالتى فلانة · أسميها شهرزاد هذا الاسم لا يبلى أبدا . فكر فى ذلك وزفر زفرة فى الضـوء ، فارتعشت نقط

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الغبار المتراصة أكثر فأكثر ، والتفتت شهرزاد ،فتموج شعرها الاسود فى الضوء وأحس بهفهفته على كتفيها المسندين الى الكرسى ٠

شهرزاد : لست ملكا انحر النساء واستعبد الناس ، أنا طالب فى السنة الثانية ، أترقب اجتياز الامتحان ، أفكارى مشوشة ، بالنظريات المتشابهة ، والمتناقضة ومهمتى أن أجد حلا وسطا ، فأكون قد ألفت بين هذه النظريات ٠

اشتد صفير القطار وهو يقترب من المحطة ٠ نزل أناس ، وحل آخرون ٠ ابتعد البحر وحلت مكانه مدائن من الاسمنت المقوى تتخللها بعض الاشجار الضائعة هنا وهناك ٠

ينطلق القطار ، تنظر شهرزاد فى بلور النافذة ، أكانت تنظر الى الذبابة التى تفرك ساقيها فى توتر ؟ أم تنظر الى المنازل المتراصة على طول الطريق ؟

شهرزاد : أحب الجلوس هنا ، أمامك ، وسط الضوء ، والقطار لايسرع، فنتحاور فى هذه النظريات التى طولبت بالتأليف بينها ٠ انظرى يا شهرزاد٠ لا تبتسمى .. اننى جاد فيما أقول . نظرية الماديين لا تتفق تماما مع نظرية الروحانيين ٠

وأنا لم استطع أن أؤلف بينهما لاننى من طين وماء فى نفس الوقت .

شهرزاد كيف استطعت ان تقنعى الملك ببقائك على قيد الحياة حتى اليوم؟ حتى هذه الساعة التى أجلس فيها اليك وأحاورك ؟

بائع الياسمين يقف بمشاميمه البيضاء العطرة ، فى هذه المحطة ، حقا انها صورة بريدية جميلة !

أهديك فيلا أم ياسمينا ؟ شهرزاد ما هذا الصمت الذى يلفك ؟ كيف ؟ تتكلمين طيلة ألف ليلة وليلة وتصمتين الآن ؟ كنت تقصين على الملك أقاصيصك الجميلة ، مبعدة عنه الحرارة بمروحة من الريش ، تتبادلان الكؤوس ، والجو حولكما مشحون قصصا ، قصصا .. قصصا ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حولهما تكثر الضجة ـ الناس يصيحون يتذمرون ـ الرتل يعود القهقرى الرتل لا يتقدم • بل يوغل فى التراجع • صاح مسافر : غير ممكن ، هل نتخلف عن عملنا ، من أجل هذا الخلل ؟ ان كان هذا الرتل غير صالح ، فلتعوضوه !

التفتت نحوه ، فى عينيها استفسار ثم قالت : أحقا كان القطار يسير الى الخلف ؟

كان مضطربا فقال : هل رأيت بائع الياسمين ؟

أجابت وسط الضجة : بائع الياسمين ، أى بائع ياسمين لم أر شيئا •

قال : ولكن يا شهرزاد ...

قاطعته متعجبة • ثم حركت رأسها فى اصرار فشوشت شعر رأسها الاسود قليلا وقالت : ليس هذا اسمى •

وقف ، هذه المرة الثالثة التى يرتد فيها القطار الى الوراء كلما استقله • لم يرد أن يعرف اسمها ، بينما كثر ضجيج المسافرين والرتل مازال متشبثا بالسكة وسلاسله مرتخية كالثعابين السوداء اتجه نحو باب القطار . ثم نزل • عدل عن ركوب القطار • أراد أن يسافر مشيا على الاقدام • اتجه نحو الطريق الموازية لسكة القطار • أخذ يسرع الخطو •• سار قليلا على الاسفلت • كان يتأمل حصاة الشارع ثم رفع رأسه ـ رأى الوجوه تقابله مستفسرة ، مغتاظة ماذا ؟ ما به ؟ فجأة توقف • لقد كان يسير فى الاتجاه المعاكس لسير الناس حوله ! وكان ذلك يحدث خللا فى نظام الحركة ، والناس مسرعين • أحس بالغثيان • التجأ الى الحائط • تملكه دوار • سقط• سمع أصواتا حوله • لم يفهم ما كان ••

نافلة ذهب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الهـادي بوطبـــة :

محـاكمة الرجـل الـذى أوصـى ...

كان بستانا جميلا .. أينعت فيه أشكال من الورد المتناسـق .. أضفـت السواقى الممتدة على جنباته بهجة ... أشجاره المثمرة الوارفة شـد ما أغرت المارة فيتوقفون عندها دون أن تتجرأ أيديهم على اقتلاع زهرة يانعـة أو وردة مفتحة .. كان بستانا جميلا أضفى على القرية حسنا وبهاء ..

أخذ مكانه فى ركن من البستان بعد أن التف حوله جمع من المشيعين أتموا معه موكب الدفن .. فتح الرجل ظرفا كتب على وجهه الخلفى « يفتح بعد الدفن يرحمكم الله » .. قطب جبينه .. خيم على البستان سكون رهيـب .. تبـادل الناس نظرات مشوبة بالحذر .. انصرف الرجل وتفرق القوم ..

استيقظ القوم على دوى محركات تدخـل القرية لأول مـرة .. استبشـر البعض .. قيل منذ أول وهلة إنه فتح جديد لتعبيد المسلك المودى الى المدرسة والمسجد .. قيل إنه تحول لتبليط المسلك الوحيد الذى يربط القرية بمدينة مجاورة .. استبشر البعض .. تمثلت أمامهم بوادر تحقيق منافـع راودتهم وحال دونهم فيها تشعب المسلك المحاذى لجبل صخرى .. لا يهم أن يقال عنهم ضيوف الريف أو نزلاء المدينة ما دامت المنافع آتية وانجلاء الكابوس محتملا ..

توقفت المحركات عن هديرها المزعج بعد أن استقرت بالقرب من البستان.. نزل أصحابها يردون على تحيات البعض ويبتسمون ازاء كـل فضول يبديـه البعض الآخر .. تطوع أحد شعراء القرية فارتجل مـا يعد فى نظـره ترحيبا وتكريما .. استلطفهم المؤدب فمنحهم صفة « رسل سلام » ..

تأكد أصحاب المحركات من خلال نظراتهم الى بعضهم أن القوم يعيشون حالة ذعر وفزع وأن مضمون الوصية كفيل باعادة الطمأنينة .. أطرق أحدهم برأسه

مشيحا بصره فى كل الحاضرين الذين يتابعون حركة رأسه الدائمة الدوران حتى اذا استقر الرأس حينا عن الحركة خاطب الحاضرين داعيا اياهم الى الحضور فى وقت لاحق لاقتسام محصول البستان والمساهمة فى اقتلاع أشجاره ..

استغرب أحد الفتيان .. أين سنلتقى مع الرفاق ؟.. أردف أحدهم وكأنه يعقب : ليحمل كل منا زهرة يهديها الى أهله .. تتضوع رائحتها .. ينتشر الحب فتغمر النفوس لمسة حنان .. تذبل تلك الزهور ولكنها على كل حال ذكرى للبستان المحتجز ..

تساءل أحد البطالين بعد أن قطب جبينه : شبح رهيب يداهم القرية !! .. انه الموت البطىء لأهلنا جميعا ..

عقب معلم المدرسة بعد أن نفث بقايا سيجارة ، هذه قرصنة جديدة .. اتركوا البستان وشأنه .. لسنا فى حاجة الى ازعاج القرية بهدير المحركات .. فاذا كان لابد لتلك المحركات أن تعمل فالقرية فى حاجة الى تعبيد المسلك المؤدى للمدرسة .. سأكلف تلاميذى باعانتكم على ردم بعض الحفر .. يتم تعبيد المسلك فتنخفض نسبة الغيابات فى أيام الشتاء وترتفع نسب الارتقاء والنجاح ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نفض المؤدب جبته وعدل عمامته وأثنى على المعلم عمق تحليله ولكنه عبر عن عدم تجاوبه بوصف العملية « قرصنة » .. انها « فتح جديد » وهؤلاء رسل سلام انطلقوا من ايمان متجذر وعاهدوا أنفسهم على تعبيد المسلك المؤدى للمسجد .. طبعا سيشمل التعبيد المدرسة .. المدرسة والمسجد معلمان لابد من صيانتهما .. استدرك المؤدب ليتساءل : وتم اخلاء البستان من اشجاره وثماره ؟ .. انكم رسل سلام تحبون الطبيعة كما نحب الله .. والحب بناء وتواصل .. ومن الحب احتضان زهرة يانعة ورعاية شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين ..

رفع صاحب القبعة رأسه فعم السكون كل الحاضرين .. على هذه الأرض الطيبة سنقيم حصنا منيعا وتلك وصية صاحب البستان .. قيل لى كان غيورا ومقداما يحب قريته وأهلها ..

توجه أهل القرية الى المقبرة .. أحاطوا بالقبر من كل ناحية فى انتظام .. كان الواحد منهم ينحنى على القبر من ناحية موضع الرأس ويهمس ثم ينصرف .. توالى الانحناء وتواصل الهمس ليفرز فى ساحة المقبرة حلقة نقاش مشحونة .. تبخر الأمل فى تعبيد المسلك المؤدى للمدرسة .. ضاع بارق الأمل عند أولئك الذين تربطهم بالمدينة المجاورة تجارة مقنعة تعتمد أساسا حدا أدنى من الرجولة والكتمان .. لا مبادرة بعد تشييد الحصن .. تغدو الرقابة مشددة وتصبح الجرأة نوعا من التهور والهلاك ..

أطرق معلم القرية برأسه قليلا وألقى نظرة ازدراء وانصرف فى صمت .. انصرف الجمع ممن أدركوا أن الوصية تعنى الموت البطىء لهم ..

تردد نبأ الحصن فتداولته ألسنة نساء القرية فى روايات متعددة لم يتخلف فيها بعض الفضوليين عن اضافة ما يرونه متمما للرواية المؤثرة .. أسرت احدى العجائز الى بعض النسوة عن شكها فى محتوى الوصية .. اقتنعت الأخرى وأكدت أن زوجة المرحوم تضمر حقدا لأهله وأقاربه فهى لم تنس يوم زواجها ما تساقط الى سمعها من نعوت مشينة ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تردد نبأ الحصن فتداولته ألسنة شباب القرية ورجالها .. أسر أحد الحاضرين الى صاحبه عن شكه فى محتوى الوصية .. اقتنع بسرعة وتأكد أن وشاية مغرضة كانت سببا فى اقدام صاحب البستان على التفويت فيه عن طواعية أو اكراه .. ألم يضبط منذ مدة أحد المبتدئين ويعترف باستخدامه البستان نقطة عبور لايصال البضاعة الى المدينة المجاورة .. كم هو جبان وسخيف أن يكشف أوراقنا ويحرمنا لقمة العيش ! .. غريب أن نحسد على ما نحن فيه من ضنك وخصاصة !! ..

اكفهرت سماء القرية فجأة وشعر أهلها بارتفاع مهول فى درجة الحرارة .. أحس كل واحد بضيق تنفس شديد .. تصاعدت من أعماق البستان حمم وشظايا أصابت المحركات الرهيبة الجاثمة هناك .. احترقت الوصية .. نعم احترقت الوصية .. انه البركان ..

الهادى بوطبة

محمد الهادى الفطناسى

المتحدية

الليل حالك الظلام ، والبرد شديد ، والغيوم خيمت على الطبيعة فبدت ساكنة سكون القبور ، اذ ذاك وقفت العجلة التى كانت تسير بصعوبة فى طريق ملتوية مملوءة بالوحل • ثم نزل ، الحوذى وقال :

ـ سيدتى ؛ قد ضللنا الطريق •

فسألته وقد اتسعت حدقتاها من الخوف •

ـ ماذا تقول ؟ رحماك يا الهى ، ما العمل ؟

فأجابها الحوذى بخشونة وعمامته تخفى جانبا كبيرا من وجهه •

ـ هناك بجانب الطريق ملجأ أمين للضالين ، يمكننا أن نلجأ اليه ، ونقضى فيه ليلتنا •

ثم سار قبل أن ينتظر جوابا • واستقرت المرأة فى زاوية العربة ، وهى ترتعد من الخوف والبرد معا ، وانقبض صدرها ، وامتلأت ؛ عيناها دموعا ، بينما شدت يداها فى ضغط على صدرها كأنها تستمد المعونة والقوة للخروج من هذا المأزق الحرج الذى وقعت فيه •

قيل لها بمحطة القطار : انها تستطيع الوصول الى قريتها قبل ساعة ، ولكن ها هى الاقدار تعاكسها ، والآن ما العمل ؟ وكيف تقضى الليل بطوله بجانب هذا الرجل الغريب عنها ؟ • لم تستطع : رؤية عينيه ، انه متنكر ، وهذا مما يثير ذعرها وقلقها • وبدأت تنتابها الهواجس ، هل هو مهذب تأمن شره ، أم هو وحش ستكون فريسته يعبث بها كيفما شاء ؟ • وبينما كانت أفكارها فى مد وجزر عاد الرجل ، فبادرته :

ـ هل وجدت المكان ؟ وهل هو فى مأمن من الخطر ؟

فأجابها بخشونته المعتادة :

ـ نعم ، ولكن عليك أن تسيرى قليلا ٠

سارت فى اثره الى أن وصلا الكوخ ، فتقدمها ، وفتح الباب قائلا لها :

ـ ادخلى ٠

ودخلت المرأة ، فوجدت به حصيرا باليا ، فجلست مرغمة ، وأوقد الرجل النار . نظرت اليه بعين فاحصة ومدققة ، وكانت عدة أسئلة تخامرها .

« ترى لماذا يخفى وجهه ؟ ولماذا لا تبدو منه سوى عينيه » ولماذا لا يجيب عن أسئلتى الا بلا أو نعم ؟ »

وأرادت أن تستطلع خفاياه ، فقالت له بصوت مؤثر :

ـ كيف يمكننا أن نبيت هنا والوحوش الضارية لابد زائرتنا الليلة ؟

فلم يتأثر الرجل من لهجتها الحزينة ، بل أجاب بدون أن يتحرك وبدون أن ينظر اليها ٠

ـ لا تخافى ٠

ولكن هذه الكلمات لم تطمئن المرأة المتعطشة الى معرفة الشىء الكثير عنه، واكتشاف لغزه ، فعادت تقول له :

ـ من أى بلد أنت ؟

وكأن هذا السؤال أصاب منه مقتلا ، فنهض قائما ، وقال :

ـ أنا من كذا ٠٠٠

قال هذه الكلمة ، ثم ترنح كالنشوان ، وسار الى باب الكوخ ٠ عندئذ رأت المرأة على ضوء اللهيب عينين تشبهان تمام الشبه عينين طالما ذكرتهما فى يقظتها ومنامها .. عينين طالما اتخذتا من قلبها مكانا قصيا ، فتولتها الرعشة ، وتمتمت :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ارحمنى يا الهى ؛ انه هو ! » ٠

ولكن ما دهاها ، وأى صدفة عجيبة جمعته بها .

«نعم ، انه هو سمير بعينه !»

ولكن ، من اضطره الى أن يكون حوذيا ؟ لقد مضت أربع سنوات على اختفائه ٠

وعادت بها الذاكرة الى ماض بعيد ولكنه كان سعيدا جدا ، أيام ذاقت حلاوة العيش ، وأيام كانت تبتسم لها الحياة من ورد الامل وعذب الاحلام ، ولكن كان هناك أب صارم الارادة لا ينثنى عن رأيه ولو رأى ابنته تحتضر خصوصا وقد أزمع ألا يزوجها حبيب قلبها ، وانما يزوجها بمن كان فى مستواه من عشيرته وأقاربه ٠ لذلك لم يكن سمير يطمع فى أن تكون من نصيبه ، وشاءت الاقدار أن تزف سعاد لمن أراده أبوها ، وأن يترك سمير البلد ارضاء واكراما لارادة والدها . وهكذا فقد سمير فى آن واحد مستقبله وحبيبته ، فكانت الصدمة قوية على شاب مثله ففجعه القدر فى آماله بلا شفقة ولا رحمة ، فهاجر القرية ولم يوقف له على أثر ٠

مرت هذه الذكريات الاليمة بذهنها فزادتها ألما ٠ وأعادت الى خاطرها ذكرى ماض حزين جعلها تنفر من كل شىء فى الوجود ، بعد أن فجعت فى حبيب قلبها ٠ ثم عاد الرجل يحمل بين ذراعيه كمية وافرة من الوقود جعلها للنار طعاما ، ثم جلس بعيدا عنها ، فقالت له سعاد :

ـ اقترب من النار واصطل ٠

ـ لا ٠

ـ لماذا تخفى وجهك هكذا ؟

ـ لقد تعودت على ذلك ٠

ـ هذا شىء غريب ، ألم تقل انك من ٠٠٠؟ لماذا تركت بلدتك ؟

ـ اضطررت الى ذلك اسعادا لغيرى واشفاقا عليه ٠

ـ ألا تريد العودة الى بلدتك ؟

ـ لا ٠

وبسرعة فائقة مدت المرأة يدها ، ونزعت القناع عن وجهه ، فظهر على ضوء اللهيب وجه الشاب البديع ، وبدت عيناه العسليتان ، وألقت بعد ذلك خمارها ففوجيء سمير فنهض بعينين جاحظتين ونظر الى المتحدية ، فصرخا

ـ سمير !!

ـ سعـاد !!

وعلا فى جوانب الكوخ نحيب متقطع ، وارتسمت على جداره : صورة المرأة الشابة الواقفة كأنها هيكل بديع التكوين ، وقفت جنب الشاب المتقد الفؤاد حسرة كأنه يلوذ به من مصائب الدهر ، ويحتمى من عذابه ، ثم مزق صوت الشابة هذا السكون ، فقالت مستعطفة والهة :

ـ انهض يا سمير ؛ واجلس أمامى لنتكلم ،

وجلس الحبيبان جنبا الى جنب ٠ ألقى الشاب رأسه الى كتفها وكأنه ناء بحمله الثقيل ، فجلس قرب ينبوع صاف رقراق ليستعيد قوته ، وأخذت أصابع سعاد تعبث بشعره برقة وحنان ثم قالت :

ـ لماذا اختفيت ولم تترك أثرا ؟ لماذا تركت اخوانك وعشيرتك ؟ ألم تشفق على شبابك الغض ؟

ـ سعاد ؛ يا سعادتى الضائعة ؛ يا أملى الذاوى ؛ يا من كنت لى كل شىء ففقدت بفقدك كل شىء : مستقبلى ، وهنائى ، وعزائى ٠٠ لقد فعلت ذلك كله من أجلك ، وحتى لا أعكر عليك صفوك ، وذلك لعلمى بأن الزمن هو خير علاج لامثالى من الشبان ٠

التقت عيناهما ، وفى صدر كل منهما شعلة تستعر وتشتد غراما ، واتحدت يداهما ببطء فى شىء من اللذة غير قليل ٠ وكان ملاك الهوى يرفرف بجناحيه فوقهما ٠ وكانت العاصفة تزمجر خارج الكوخ ٠٠٠ عاصفتان قـويتان : احداهما عاصفة الطبيعة الغاضبة الثائرة الناقمة ، والثانية عاصفة قـلبين ما كادا يرتشفان كأس السعادة حتى حطمهما القدر وهو يضحك ساخرا ٠٠ سوف تهدأ عاصفة الطبيعة بعد مدة فيعود السكون ، وتشـرق الشمـس ، وتنطلق الطيور باحثة عن أرزاقها ٠٠ أما عاصفة هذين القلبين فلن تهدأ أبدا ٠

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشع الصباح نوره الباهت على الطبيعة ، فنظرت سعاد الى خارج الكوخ وقد طلع عمود الفجر فتأوهت ، ثم رفعت رأس سمير ونظرت الى عينيه اللتين كانتا مرتع أحلامها ، واللتين اضناهما البكاء ، وارتسم الالم فى أشعتهما ، وبصوت يشبه صوت المشرف على الغرق قالت :

ـ انهض يا سمير ؛ لقد طلعت تباشير الصباح ، لنذهب ... يا سمير .

نظر اليها الشاب مليا ، ثم انحنى على يديها وغمرهما بالقبل وغسلهما بالدموع ، وقال :

ـ آه ، ما أسرع ما انقضت هذه الليلة !

وبعد دقائق سارت العربة فى طريقها وبها شخصان يحمل كل منهما من الهم ما الله به عليم ثم واصلا السير صامتين حتى وصلا مشارف الحي فوقفت العربة وقال سمير :

ـ ها قد وصلنا ، أظن أنهم يئسوا من قدومك ، وطال انتظارهم .

ولما اتجهت سعاد نحو القرية تراءى أمام مخيلتها شريط أقتم فى صورة ما اذا اعترفت بالحقيقة لوالدها فتكون كمن أشعل فتيل الفتنة فى قريتها ذلك ان والدها وعشيرتها سينتقمون من سمير ، فترد قبيلته الفعل ، فتشب الفتنة بين القبيلتين ، وتكون هى أشأم من البسوس ، ولذلك رأت من الصالح والمفيد أن تبالغ فى التعمية حتى تقنع والدها وعشيرتها بأن الحوذي الذى اتت معه لا تعرفه ، وليس له أية نية مبيتة ، وأنه ضل الطريق لقوة العاصفة واشتداد الظلام وغزارة المطر ، وأنه لم يمسها بسوء .

وهكذا صممت على عدم الاعتراف بالحقيقة وليكن ما يكون . وبينما هى مغرقة فى تخيلاتها اذ ظهرت لها أمها كالمعتوهة خارج القرية . وهى تلتفت هنا وهناك . ولما تراءت لها سعاد من بعيد هرولت نحوها وضمتها الى صدرها بعنف وهى تقول :

ـ سعاد ؛ بنيتى ؛ ليتنى لم ألدك حتى لا أرى ليلة كالبارحة ، أين قضيت ليلتك ؟ قولى ، تكلمى ، خبرينى ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ ما فعل والدى يا أماه ؟

ـ اسألى عن أمك ، اسألى عنى أنا ، قولى أين قضيت ليلتك ؟

لقد بلغنا أنك أتيت بالقطار الذى تأخر عن موعده ٠

ـ لما أرسى القطار بالمحطة كانت العاصفة قوية والمطر غزيرا والبرد شديدا والظلام حالكا فخرجت مسرعة فوجدت عربة امتطيتها الى القرية ولكن الحوذي ضل الطريق وغاصت العربة فى الوحل فاضطررنا الى الالتجاء الى كوخ يوجد بالقرب من ذلك المكان ٠٠٠

ـ يا للفضيحة !

ـ والله لم يمسنى بسوء ٠

ـ كيف لم يمسك بسوء وقد قضيت معه ليلة كاملة ٠٠

أيعقل هذا ؟٠٠

ـ والله العظيم يا أماه لم يمسنى بأى سوء ، وقد تصرف معى كما يتصرف الأب مع ابنته أو الأخ مع أخته أو الخال مع بنت أخته .

ـ اذن فهذا الرجل الطيب الاصيل يستحق الشكر ، ولكن أنى لنا به حتى نشكره ونكرمه ، أنى لنا به حتى يطمئن قلب أبيك وتطفأ نار عشيرتك ويعرف القاصى والدانى أنك ابنة فاطمة التى لا تعرف من الرجال غير أبيك أنى لنا به يا ابنتى لاننى صدقت كل كلمة قلتها لى ولانه بامكانى أن أقطع كل الالسنة واقنع الجميع بطهارتك وعفافك ٠٠ أين هو يا ابنتى ؟

ـ لقد تابع سيره فى اتجاه المدينة المجاورة ٠

ـ لابد من استضافة ذلك الشهم واكرامه ٠ أليس كذلك يا ابنتى ؟

ـ افعلى ما ترين يا أماه ٠

وحالما عادتا الى القرية رجت فاطمة زوجها أن يلتحق بالرجل حالا ويأتى به للاستضافة والاكرام ، فما كان من الزوج الا أن انصاع لطلب زوجته وخف مسرعا يبحث عن الحوذى ٠٠

محمد الهادى الفطناسى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نور الدين بن بلقاسم

صـورة المجتمـع فى روايـة « محـاولـة عيـش »

صاحب هذه الرواية هو الكاتب المغربى محمد زفزاف (I) طبع الدار العربية للكتاب 1985 ، ذات 113 ص ، من قياس 21 × 13 .

تدور أحداث هذه الرواية فى مجال المجتمـع المغربى ، وزمانها هـو الزمن الحاضـر .

وهذه الرواية تقف من الواقع الاجتماعى موقفا نقديا ، فيحاول الكاتب فيها من خلال تتبعه لمسيرة الأبطال أن ينقد مختلف جوانب الواقع الاجتماعى .

وسيكون تحليلنا لهذه الرواية بحسب المخطط التالى :

I ـ أبطال الروايـة .

2 ـ الواقـع الاجتماعى .

ويتمثـل فى الجوانب التاليـة :

أ ـ الواقـع السيـاسى

ب ـ الواقـع الاقتصـادى

ج ـ الواقـع الاجتماعى

د ـ الواقـع الدينـى

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(I) محمد زفزاف : كاتب مغربى يكتب باللسانين العربى والفرنسى مما صدر له بالعربية (حوار فى ليل متأخـر) (قصص) و « أرصفـة وجدران » (رواية) و « الشجرة المقدسة » (قصص) و « الأفعى والبحر » (رواية) ومما كتبه بالفرنسية : « ثلاثة عشر شاعرا مغربيا » (بالاشتـراك مـع آلان لوبـر) .

3 ـ ما تهتم به الرواية .

1 ـ أبطال الرواية :

تعتنى هذه الرواية بالانسان البسيط ، ساكن الأحياء الشعبية . فحميد بطل الرواية الرئيسى نشأ فى أسرة فقيرة تسكن فى حى من الأحياء الصفيحية المكونة من براريك قصديرية تقع بضاحية المدينة ، وسكان هذه الأحياء منهم : « الحفارون والخادمات واللصوص ، ومنهم الصباغون والجيارون والبائعون المتجولون والمتسولون وكل شىء .. منهم حتى بائعو الصحف ومن بائعى الصحف حميد » (2) .

وحميد على اثر اقتراح من صديقه الضاوى يذهب ليشتغل مثله بائع صحف (3) .

وفى الطريق أخذ حميد من الضاوى فكرة عن رئيس شركة التوزيع ، وقد أوصاه صديقه بأن يكون مؤدبا أمامه ، وأن يتظاهر بالسذاجة ، فالرئيس لا يحب الأذكياء ذوى النظرات الحادة ، وانما يرغب فى المعتوهين المغفلين (4) كى يأتمروا بأوامره دون معارضة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفى الطابور أمام مكتب التوزيع يقف حميد : « شيوخ وشبان وآخرون فى مثل سنه » (5) . كان عددهم حوالى عشرين ، وكان هؤلاء لا ينامون سوى ثلاث ساعات أحيانا على أربع وعشرين ساعة .

ويأذن الرئيس لحميد بالانخراط فى مهنة بائعى الصحف (6) ومن يومها يشرع فى الركض والصراخ عبر الشوارع ذاكرا عناوين الصحف التى يتأبطها ، فيبيع هذه الصحف للوافدين الأجانب ، والى رواد المقاهى والبيض

---

(2) محمد زفزاف ـ محاولة عيش : 20 ـ طبع الدار العربية للكتاب سنة 1985
(3) نفسه : 22 .
(4) نفسه : 23 .
(5) نفسه : 24 .
(6) نفسه : 25 .

الأثرياء ، ولكنه كثيرا ما كان يلاقى منهم قساوة لأنهم كانوا يحتقرونه ويشتمونه ولا يشترون جرائده (7) . وكان كثيرا ما يحس بالارهاق والتعب الشديدين من جراء هذا الصراخ والركض فيضطر الى النوم فى ظل أشجار الحدائق (8) . وكثيرا ما كان تعبه يذهب باطلا لأنه لا يبيع من الصحف ما تكفى نقوده حاجته وحاجة أسرته .

وترغب أم حميد فى تزويج ابنها فتخطب له (فيطونة) ابنة الجيران . وهى فتاة تغمز برجلها ، ذات ردفين ، متوردة الوجنتين ، غليظة وسمينة مثل عجلة : « أخواتها كلهن نحاف ضعاف الاجسام ، أمها قصيرة فى طول خنصر ، لكنها هى تبدو مثل يهوديات حى الملاح اللواتى يأكلن الفلفل والباذنجان كثيرا » (9) .

ويتعرف حميد فى الأثناء على المومس « غنو » التى أنقذها ذات فجر من أمريكى ومغربى سكيرين كان كل واحد منهما يرغب فى افتكاكها (10) . ومع « غنو » يجرب حميد العيش مع النساء .

و «غنو » هذه كانت تعيش عيشة راضية مع أسرتها فى (العوامرة) ، وكان لأسرتها أغنام وأبقار (11) ، ولكن « غنو » وقعت لها حادثة : (فعلها ولد الرايس فهربت) (12) بنفسها ، وكان هروبها الى المدينة خوفا من أهلها اذا ما افتضح أمرها ـ هربت : « من الريف مباشرة الى الكحول الى السيجارة الى صالونات الحلاقة والتزيين الى لوك العلك » (13) . وكانت تظن أنها ستجد فى المدينة ملجأ أفضل ، ولكنها سقطت ، فصارت تقضى الليالى مع السكارى والحشاشين ، وتنام فى أوكار الاوغاد ، وانقلبت حياتها الى جحيم لا يطاق .. فهى تقضى الليل وجزءا من النهار تكد بجسدها لكسب قوتها ،

---

(7) محمد زفزاف ـ محاولة عيش : 6 .
(8) نفسه : 47 .
(9) نفسه : 85 .
(10) نفسه : 90 .
(11) نفسه : 105 .
(12) نفسه : 94 .
(13) محمد زفزاف ـ محاولة عيش : 59 ـ 60 .

وكثيرا ما تضرب وتهان وهى فى حالة سكر .. ومع « غنـــو » يغـادر حميد براءته ويتخلى عن وصايا أمه ، ويجـرب مغامرة الجنس والشراب . فقـد بدأ معها بكأس ثم بكأسين ثم تمادى ، (14) .

وللقساوة التى كان يلاقيها حميد من أمه وأبيه وللارهاق الذى يلاقيـه كل يوم من عمله فقد صار يرتاح الى « غنـو » لأن هذه الفتاة برغـم سقوطها فى أوكار الأوغاد فقد حافظ قلبها على طيبة أهل الريف وكرمهم ، ولذلـك كانت لا تعطى أهمية للمال ، وكثيرا ما كانت تدس فى جيب حميد بعض النقود التى لم يكن صاحبها فى حاجة ملحة اليها (15) ، وقد أعطته سوارها ـ لما علمـت به مقدما على الزواج ـ كى يهديه لعروسه أو يبيعه ليستعين به فى حفـل الزفاف أو يدخره لوقت الحاجة (16) ، وكان أقصى أملها منه أن يزورهـا حتى بعـد زواجه ، ولذلك كان حميد يرى فى عاطفتها نحوه الصدق أكثر مـن الآخرين الذين يتعامل معهم كل يوم ، وتزف أم حميد ولدها الى فيطونة ، ولكنه فى ليلة الدخلة يكتشف أن عروسه ليست عذراء : « هرولت [أم حميـد] الى حيث العروس والعريس ، طرقت باب الكوخ ، فتح حميد وقد تغير لونه تحت ضوء اللمبـــة .

ـ باسم الله عليك يا ولدى ! اياك أن تقول بأنك مسحور .

ـ لا يا أمى أنا لست مسحورا أستطيع أن أتزوج قبيلة .

ـ مـاذا إذن ؟

ـ لكنهـــا ...

ـ لا تقلهـا . أليست عذراء ؟

ـ ليســت عـذراء ! .. » (17) .

---

(14) نفســه : 98 .

(15) نفســه : 97 .

(16) نفســه : 103 .

(17) محاولة عيش ـ محمد زفزاف : 111 ـ 112 .

إن فقدان عذرية فيطونة هو فقدان لطهارة مجتمع كامل ، فهذه الفتاة التى تعتقد أمها أنها : « فتاة كلها نقاء وطهارة » (18) تظهر على عكس ما يعتقد فيها ، فهى رمز لمجتمع يتشبث بمظاهر الطهارة بلا طهارة ، ويتظاهر بمحاربة الفساد وهو غارق فيه ، ويبدو حريصا على قيمه وهو مفرط فيها ، مستهين بها ، مهمل لشؤونهـا .

ولعل ذلك ما جعل حميدا ـ منذ طفولته ـ يجد نفسه يتخبط وسط مجتمع قاس ، يحاصره من كل جهة ، ويسد عليه المنافذ ، وشيئا فشيئا يفقد حميد ـ أثناء مسيرته ـ احساسه ببراءة العالم الذى هو فيه ، وشيئا فشيئا يفقـد هو نفسه براءتـه .

فمنذ طفولته وجد نفسه فى وضعية المستغل (بفتح العين) فحراس السفن يبتزون نقوده القليلة (19) ، والشرطة تطارده من مكان الى آخر احتقارا لأمثاله وتفتك منه حتى ما يجود به عليه الناس (20) .

وأبواه لا يريان فيه فائدة الا اذا جلب لهما ما يحصل عليه مـن فرنكـات قليلة ، وبرغم طاعته لأبويه فان أمه لم تكن يوما راضية عن محصوله من عمله : « انظرى يا أمى ، قدماى تورمتا من المشى ، أقسم لك هذا ما حصلت عليه اليوم اذهبى واسألى الرئيس اذا شئت لم أبع سوى عشرين صحيفة هذا اليوم » (21). فهذا الصنف من المجتمع يلاقى من ضنك العيش الشىء الكثير ، من ذلك أن أحد معارف حميد ـ وهو بائع صحف مثله ـ أدخلته الشرطة الى السجن مدة شهرين على صغر سنه ، وذلك بايعاز مـن ابنة جيرانـه العاملـة فى احـدى الحانات ، اذ يبدو أنها راودته فامتنع ، فتسببت له فى السجـن بأتفاق مـع الشرطة التى وجهت له تهمة تناول الشراب :

---

(18) نفسـه : 107 .
(19) نفسـه : 11 .
(20) محاولة عيش : 55 ـ 56 .
(21) نفسـه : 46 .

« كان حميد يتغذى ، تقاسم مع الضاوى قطعة الخبز والزبدة والليمونادة ، سمع أحد باعة الصحف يحكى لأصدقائه ، كان شابا قويا ، سأله أحدهم :

ـ لقد سكرت حتى أخذوك الى السجن شهرين .

ـ لا لـم أسكـر .

ـ لقد كذبوا عليـك إذن .

ـ نعم ، من أجل امرأة تشتغل فى « بار » هى ابنة حينا ، حرضـت عـلى شرطيا لسبب معيـن .

ـ إنك تضخم الأشياء . لقد سكرت وأحدثت فوضى .

قال الآخر بدون غضب وحميد يسمع لمغامرة السجن هذه :

ـ لقد أصعدنى الشرطى بالقوة الى السيارة .

هل تعرفون ما فعل فيما بعد ؟ أتى بزجاجتى خمـر فارغتيـن ، وزجاجـة ممتلئة حتى النصف ، قال :

ـ لقد شربت كل هذا وفعلت كذا وكذا ، لم أفهم شيئا من كل ذلك . قلت أمام المحكمة : اننى لم أشرب ، وحاولت أن أشرح كل شىء لرئيس المحكمة ، لكن الرئيس سألنى :

ـ مهنتـك ؟

ـ بائـع صحـف .

قال الرئيس :

ـ تفعلها وتفعل أكثر منها أيها الكلـب ...

.. حكمت المحكمة على المتهم .. الخ .. » (22) ، ان سلطة التنفيـذ ـ التى تمثلها الشرطة والمحكمة ـ تبدو بسجنها لبائع الصحف هـذا غير جـادة فى عملهـا .

---

(22) محاولـة عيش : 39 ـ 40 .

فالشرطة تأخذ برأى المومسات ، فتطارد الابرياء وتلصق بهم التهم الباطلة ، وهذه الشرطة المتظاهرة بالمحافظة على الاخلاق تحمى ذوات السمعة السيئة لأن لها فيهن منافع فى الجسد والمال ، وهى فى الوقت الذى تقود فيه هـذا الشاب الى السجن بدعوى شرب الخمر ، تحمى أوكار الفساد ، وكان يجب أن تداهمها ، وتطهرها ، ولعل ذلك كان كذلك لأنها تستفيد من هـذه الاوكار ، وتخدم بهـا السلطة حين تلهى فيها العامة عن واقعها الفاسد المتخلف .

وسلطة التنفيذ ترسم بهذا الفعل صورة متداخلة متعارضة للواقع الاجتماعى وأصل هذا التناقض يكمن فى وجهات الواقع التالية :

أ ـ الواقـع الاقتصـادى :

إن الواقع الاقتصادى المتردى الذى يعيشه الناس تسبب فى كل الانهيارات الأخرى فى مجتمع حميد ، فنتيجة الفقر فى الأرياف نزح النـاس الى المـدن ، وسكنوا بيوت الصفيح حول المدينة طمعا فى البحث عن حياة أفضل ، إلا أن خيبة الأمل جعلت الفقر يشتد فى هذه الأحياء فاذا بها معدن لتصدير المومسات والخدم وبائعى الصحف والمجرمين والسراق ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأسباب فقر هؤلاء كثيرة زاد فيها كثرة الحشاشين (23) المهربيـن لأنواع الخمور والأفيون والعملات (24) ، والقماريـن (25) ، والمغتنين بطـرق غيـر مشروعة (26) ، والمتسلقين الى المراتب بالوساطة والمحسوبية (27) .

ان هذه المضاربات جعلت هؤلاء الفقراء فى الاحياء الصفيحية يزدادون فقرا ، فلم يستطيعوا أن يجدوا مكانهم فى مجتمع الفئات والعائلات والطوائف ، هذا

---

(23) محاولـة عيش : 10 .
(24) نفسـه : 14 ، 16 .
(25) نفسـه : 33 .
(26) نفسـه : 16 .
(27) نفسـه : 7 ـ 8 .

المجتمع الذى لا يراعى أفراده الناس الا على قدر الاستفادة منهم ، ولذلك فالمعتبر هو الذى ثقلت جيوبه ، أو الذى ثقل فى الميزان الاجتماعى .

وهذا ما جعل سكان الاحياء الصفيحية لا يستطيعون التخلص من الجوع (28) فيبحثون عما يسد الرمق ، ويأكلون السقط من اللحم (29) ، فى أوقات متباعدة ، ويلبسون الخرق البالية الممزقة (30) ، ونسبة كبيرة من سكان هذه الأحياء عاطلون عن العمل فيقتلون وقتهم بلعب (الدامة) (31) ، ونسبة منهم متقاعدون حاربوا مع فرنسا فى الهند الصينية (32) .

وتكثر الامراض فى تجمعات هؤلاء الفقراء مثل الجرب والسل والشلل (33) وللعجز الذى أصاب الكثير منهم نتيجة هذه الامراض فانهم يعيشون على الدقيق والحليب الامريكيين ، وكثيرا ما يلقى الامريكيون : « نفايات القاعدة الجوية ، فيتسارع اليها كل ساكنى البراريك ليلتقطوا الأجبان المدودة ، وبقايا المصبرات القذرة ، وقطع الخبز المبللة بسوائل لا يدرى أحد ما هى ، ويلتهمون كل ذلك بنهم كبير .. » (34) .

ولأن جل سكان هذه البراريك من العاطلين فانهم يخرجون فى المواسم لجنى البلوط وبيعه بثمن بخس : « ورغم محاولات الدولة لمنعهم من ذلك فانها لم تكن لتفلح . كانت النتيجة العثور على عدد من جثث حراس الغابة ممزقة أو مشوهة » (35) .

---

(28) نفسه : 47 .
(29) نفسه : 21 .
(30) محاولة عيش : 54 .
(31) نفسه : 68 .
(32) نفسه .
(33) نفسه : 69 .
(34) نفسه .
(35) نفسه : 20 .

فالوضع الاقتصادى السيء يدفع بهؤلاء الى الوقوع فى الجريمة : فـ « حيث يكون الجوع فان قتل الانسان مثل قتل ذبابة » (36) . فهـذا الحرمـان الذى تعيش فيه الأحياء الفقيرة جعل صورة المجتمع مشوهة ، ففى دواخـل المدينة ثراء فاحش ، وفى أطرافها فقر مريع ، ولعل الخوف من تحرك هـؤلاء الفقراء هو الذى جعل السلطة السياسية تحتاط .

(البقية فى العدد القادم)

فى العدد القادم وما يليه :

حوار بين ريم العيساوى وضياء قصبجى

الدائرة لبنت البحر

قراءة فى خطرة العم عصمان لأحمد ممو

إنك والبحر واحد لدليلة الزيتونى

أنف العفة ليوسف عبد العاطى

شقرون لمحمد العروسى المطوى

الـخ ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(36) نفسـه .

الفهـــرس

فهرس العدد الاول (جانفى / مارس 1987) من المجلد التاسع عشر

تصـديـر 3

مـن غيـاهب الجـب ..... **الطـاهر قيقـة** 5

المـائدة ..... **حسـن نصـر** 11

ضبـاب الضفـة الأخـرى ..... **التـابعي الأخضـر** 13

الحـرية والانتـاج القصصـى التـونسى .... **جلـول عـزونة** 23

الكـلاب ..... **محمـود بلعيـد** 33

حكـاية الحكـاية ..... **علـي العبيـدي** 42

تقـديم مجمـوعة : فـارس الظـلام ..... **محمـد قـوبعة** 55

خـريف ... وأقحـوان ..... **حيـاة بن الشيـخ** 64

مسـافر مـن العصـر الـوسيط ..... **بليـغ كـاراسو** 75

تعريب : أحمـد ممـو

الـرجل الذى يمشـي القهقـري ..... **نافلـة ذهـب** 83

محـاكمة الـرجل الـذى أوصـى ..... **الهـادي بـوطبة** 86

المتحـدية ..... **محمد الهادي الفطناسي** 89

صورة المجتمع فى روية « محاولة عيش » .... **نور الدين بن بلقاسم** .. 95

سحبت من هذا العدد : 3.000 نسخة

تم طبع هذه المجلة بمطبعة الشركة التونسية لفنون الـرسم
تحـت عـدد 209 / 87 ـ الايـداع الـقـانـونـى 2 / 87

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com